ميلاني كلاين
جون ريفير

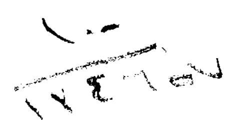
الحب والكراهية

ترجمة:
وجيه أسعد

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع







الحبّ والكراهية

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

ميلاني كلاين
جون ريفير



الحبّ والكراهية

ترجمة:
وجيه أسعد

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب الأساسي

collection science de l'homme
dirigée par gérard mendel

mélanie klein
joan riviere

l'amour et la haine

le besoin de réparation

étude psychanalytique

112

petite bibliothèque payot
106, boulevard saint-germain, 75006 paris

مدخل

حين اقتنيت كتاب « الحب والكراهية » لمؤلفيه ميلاني كلاين وجون ريفيير تصفّحته لأكون على بيّنة من أمر ما يبحث ، ووجدت أن نقله إلى العربية يقتضي أن يكون لدى القارئ شيء من الاطلاع على أعمال ميلاني كلاين ، المحلّلة النفسية الشهيرة ، وعلى بحوثها في مجال النمو البدني لحياة الطفل الذهنية والوجدانية ، من خلال ما أطرحه من ترجمات لبعض الكتب في التحليل النفسي . فاحتلّ الكتاب مكانه في مكتبتي ، وغاب عنوانه عن ذهني غياباً تاماً .

وذكّرتني بالكتاب حادثة مؤسفة : فقد أُصيب باضطراب نفسي ابن صديق من أصدقائي . ولن أدخل في تفصيلات هذه الحالة ، ولا يتيح لي هذا المدخل مجالاً لبحثها . ولكن ما أثار انتباهي في حالة ابن الصديق يكمن في اهتزاز الوجوه الأبوية في ذهنه ، بل إن هذا الاهتزاز طغى على الوجوه الأخرى لأقرب الناس إليه ، بحيث أن الحب لم يعد له وجود في نفسه على وجه التقريب حين يُصاب بأزمة الحصر ، والكره والعدوانية هما العاطفتان السائدتان لديه . فهل ترى ، أيها القارئ العزيز ، أقسى على نفس الأبوين من أن يريا الكره ، الكره الموجّه لهما ، بادياً على وجه الابن ، وأن يسمعاه يعبّر عنه تعبيراً بأساليب مختلفة ؟ وهل ثمة أشد إيلاماً ومرارة من أن يتحقق الأبوان أن ما قدّماه له ، بوصفه أمنية غالية على نفسه ، يفسّره تفسيراً يتناسب مع الكره السائد في نفسه ؟ فماذا يفعل إذن بالأخطاء التي ارتكبها الأبوان فعلاً بحقه وكيف يفسرها ؟

وعدت إلى الكتاب علّني أجد فيه تفسيراً لحالة الشاب وجواباً عن كثير من الأسئلة التي طرحتها على نفسي ، وطرحها ذووه أيضاً على أنفسهم والأبوان على وجه الخصوص : إلى أي حدّ يتحمّل الأبوان والمحيطون بالطفل مسؤولية هذه الحالة من غياب الحب ، وبروز الكره والعدوانية ، والرفض التام للجميع في بعض الأحيان ؟ وهل ثمة خطأ كبير في تربية الطفل حتى يقع ، وهو راشد ، في مثل هذه الحالة ؟ وإلى أي حدّ تساهم الظروف التي يواجهها ، الحالية والسابقة ، والإحباطات التي يعانيها في الماضي والحاضر ، في إحداث تلك الحالات من الاضطراب النفسي ؟ إلخ ، إلخ .

ووجدت في الكتاب إجابات عن كثير من الأسئلة التي تثيرها حالة هذه طبيعتها . ووجدت في الوقت نفسه مناسباً أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية . فحاجة القارئ العربي إليه حاجة ماسّة أياً كانت مرحلة العمر التي يمرّ بها .

ويبحث الكتاب ، بلغة شائعة على وجه التقريب ، بعض الآليات النفسية الأكثر عمقاً ، آليات تحدّد أعمال الناس الأسوياء وعواطفهم . ويعتمد الكتاب ، في الجزء الأكبر منه ، على بحوث ميلاني كلاين ، على الرغم من أن جون ريفيير ، المحلّل النفسي المعروف ، يشترك معها في تأليفه ، وله بحوثه الخاصة في هذا المجال .

وأودّ أن أشير إلى أنني لم استخدم في ترجمة هذا الكتاب مصطلحاً غير معروف للقارئ الذي يتابع هذه السلسلة من الكتب . وبوسعه ، عند الضرورة ، أن يعود إلى معجم المصطلحات الملحق بنهاية بعضٍ منها .

وجيه أسعد

١٩٩٢/١/٢

مقدمة

يجد التحليل النفسي بهذا المؤلَّف وسيلة جديدة يعبّر بها عن نفسه . والمقصود في الواقع ضرب من محاولة هدفها أن يعرض بلغة شائعة بعضاً من الآليات النفيسة الأكثر عمقاً ، آليات تحدّد أعمال الرجال والنساء الأسوياء وعواطفهم . والموضوع لم يكن قط قد عولج من قبل على هذا النحو . وسيكون من الضروري أن يبذل القارئ جهداً ليفهم كيف يعمل الذهن في اللاشعور . ولم تكن الدراسات العيادية التي أتاحت صياغة هذه المجموعة من النتائج قد عُرضت في هذا المؤلّف . ولو كان الأمر قد تمّ على هذا النحو ، لكان من الضروري أن يتعاظم حجمه عشرين ضعفاً على الأقل . والمعركة الطويلة والمؤلمة التي يشنّها الإنسان محاولاً أن يتغلب على الآليات اللاشعورية الموجودة في نفسه ، ومحاولته أن يطرح خارج الشعور ميولاً وأفكاراً لا تُطاق ، وأخيراً معرفته المتعاظمة أن هذه الأفكار المطمورة تشرح ، حين تتجلّى ، أموراً في نفسه لم يكن شرحها ممكناً بغير ذلك ــ كل هذه المادة التي يحتازها المحلّل النفسي ، والتي تحمل إليه وحده الاقتناع ، كان لا بد من أن تُستبعد .

وثمة اتجاهان يعرّضان القارئ إلى الضلال في فهم الموضوع إذا لم يكن يقظاً . فعليه أن يحاول الامتناع عن أن يعزو إلى شعور الأطفال الصغار آليات نفسية لا تنمو إلا فيما بعد . وعليه ، من جهة أخرى ، أن لا ينسى أن القوانين التي تحكم العمل الوظائفي للاشعور تختلف عن تلك التي لا تنطبق إلا على راقات الذهن

الأكثر شعورية ، راقات يسوسها العقل . وهذا العجز ، عجز المرء عن أن يفهم أن الأفكار والعواطف اللاشعورية ليست لاشعورية فحسب ولكنها تُدرك بصعوبة أيضاً ، مصدر تصور للتحليل النفسي خاطئ على الغالب .

إن مؤلفي هاتين المحاضرتين اكتشفا أصل العديد من عناصر الحياة الراشدة حتى في الطفولة الأولى . وهما يبيّنان لنا ، من جهة أخرى ، أن كثيراً من السمات تبرهن على أن أنماطاً بدئية من التفكير تبقى لدى الراشد . وهذه الحركة ، حركة الانتقال من الطفل إلى الراشد ومن الراشد إلى الطفل ، تلازم الموضوع وقد تبدو محيّرة للوهلة الأولى . والواقع أن لاشعور الراشد لا يختلف كثيراً عن ذهن الطفل . وهذا هو السبب الذي من أجله ينبغي الاعتراف بأن المحلّلين النفسيين يعزون إلى الراشدين ، على نحو من الأنحاء ، نمطاً من التفكير الطفلي ، مع أنهم يقيمون تمييزاً بين شخصية الراشد ونمط تفكيره وبين شخصية الطفل ونمط تفكيره .

والأعمال التي ينبني عليها هذا المؤلف صادرة ، في الجزء الأكبر منها ، عن بحوث ميلاني كلاين ، المنصبّة على النمو البدئي لحياة الطفل الذهنية والوجدانية . ومن المناسب أن نضيف أن هذه البحوث لا تزال تشكّل موضوع انتقادات وبحوث .

جون ريكمان

الفصل الأول
الكره ، والرغبة في التملك ، والعدوانية

بقلم جون ريفير

سندرس في هذا الكتاب بعض الجوانب من الحياة الوجدانية لدى الرجال والنســاء الذين ينتمون إلى الجمـاعات المتمدّنة ، جوانب نعرف جميعنا تجلّياتها اليومية معرفة جيدة . ولهذه التجليات مصدران أساسيان هما الغريزتان الكبيرتان الأوليتـان لدى الإنســان : الجوع والحب ، وبعبارة أخرى ، غريزة المحافظة على البقاء والغريزة الجنسية .

فحياتنا تخدم ، بصورة أسـاسية ، غرضـاً مزدوجاً : الاطمئنان على وسائل الوجود واستمداد اللذة ، في الوقت نفسه ، من هذا الوجود . ونحن نعلم جميعاً أن هذين الهدفين يولّدان انفعالات عميقة ويمكنهما أن يكونا سبب الضروب الكبيرة من السعـادة أو الشقاء . فأن نصف على وجه الدقة تفاعل غريزة المحافظة على البقاء ، واللذة ، والحب ، والكره ، ذلك أمر يكافئ أن نصف كل تجلّيات الحياة الإنسانية وأن نشرحها . ولهذا السبب ينبغي للخطوط الكبيرة لهذا التفاعل ، في هاتين المحاضرتين ، أن تكون بالضرورة شديدة التبسيط والإجمال . وهي ستهمل بعض العناصر . وسنقتصر على أن نحاول إعطاءكم فكرة عن بعضٍ من البنيات الرئيسة للحياة الوجدانية ، وعلى أن نبيّن لكم كيف تؤثّر هذه البنيات على سلوك الأفراد والجماعات . وعلينا أن لا ننسى أن الكره يتصف ، على وجه العموم ، بأنه قوة تدمـير وتفكّك ، تمضي في اتجاه الحرمـان والمـوت ، وأن الحب قوة تضـفي الانسجام والتوحّد ، قوة تنزع صوب الحياة واللذة . وهذا القول يقتضي مع ذلك

تقييداً مباشراً . والواقع أن العدوانية التي تقترن بالكره اقتراناً وثيقاً ليست على الإطلاق تدميرية أو مؤلمة بصورة كلية فيما يخص أهدافها وعملها ؛ والحب ، الذي ينبعث من الحياة ويرتبط بالرغبة ارتباطاً وثيقاً جداً ، يمكنه أن يكون عدوانياً ، بل مدمراً في تجلياته . فالهدف الأساسي ، في الحياة ، هو العيش والعيش المستساغ ؛ وكلٌّ منا يحاول ، لبلوغ ذلك ، أن يتغلّب على قوى التدمير الموجودة في نفسه ، وأن يتخلص منها إذ يتركها تتشظّى ، ويغيّر اتجاهها ، ويصهرها حتى يستطيع أن ينال في الحياة أكبر أمن ممكن ــ واللذة بالإضافة إلى ذلك . وتتيح لنا تكيّفات متنوّعة إلى الحد الأقصى ، بارعة ومعقّدة ، أن نحقّق هذا الهدف . والنتيجة ، التي تختلف تبعاً لكل فرد ، هي ، على نحو أساسي ، محصّلة عاملين متغيّرين : قوة دوافع الحب والكره (القوى الوجدانية فينا) وتأثير الوسط على كل منا ، تأثير يستمرّ مدى الحياة ، بالنظر إلى أن هذين العاملين يتفاعلان تفاعلاً مستمراً من الولادة إلى الموت . وسأصف ، في هذه المحاضرة ، بعضاً من الوسائل التي نحاول بها أن نتغلب على قوى الكره والعدوان الكامنة فينا ، وهي قوى خطرة وتسبّب التفكك . ونحن نبحث أيضاً ، بهذه الوسائل ، عن أمن إزاء هذه القوى التي يمكنها ، إذا كانت عنيفة جداً ، أن تقود الفرد إلى ضروب من الحرمان المؤلم أو تقوده حتى إلى الفناء .

أولاً ــ العدوانية

نعترف على وجه العموم بغريزة عدوان لدى الإنسان ومعظم الحيوانات ، على أنها غريزة فطرية هدفها الدفاع عن النفس على الأقل ، ويبدو واضحاً كذلك ، في سيكولوجيا الإنسان ، أن الدوافع العدوانية تكوّن عنصراً أولياً وأساسياً . وحسب المرء أن يلاحظ الوضع العالمي أو سلوك الأطفال الصغار حتى يفهم ذلك . ولكن كل فرد منا ، في رأيي ، يعلم بحسب تجربته ، إلى جانب

البراهين « الخارجية » على وجه التقريب ، أن ما يدور حولنا من مزاج سيء ، وأنانيـة ، وبخل ، وحسد ، وعداوة ، هي عواطف يستشعرها الآخرون ويعبّرون عنها يومياً . ونحن نعلم ذلك ولو أننا لا نعترف بوجودها فينا اعترافاً واضحاً كل الوضوح ، ونعلم أيضاً أن مصدر الجزء الأعظم من مضايقات الحياة اليومية كامن في هذه العواطف . وأولئك الذين ينبغي لهم أن يمنحوا ولو قليلاً من الزمن وطاقة لتجاوز نتائجها السيئة وتعديلها عندما تتجلّى لدى الآخرين ــ ولدينا أيضاً ، عديدون .

ولا نجهـل أيضـاً أن ثمة دوافع عدوانية ، فظّة وأنانية ، تقترن اقتراناً وثيقاً بعواطف اللذة والإشباع ، وأن ضرباً من الافتتان والإثارة يمكنهما أن يرافقا إشباع هذه الدوافع . ومثال ذلك أن اللذة العنيفة ، أو الابتهاج على الأقل ، التي يشعر بها المرء وهو يوجّه ملاحظة جارحة إلى شخص آخر ، يمكنها أن تُرى في عينيه . وثمـة حكـايـات ومشـاهد عنيفـة إلى حدّ تجمّد الدم في عروقكـم ، وأفلام ، ورياضات ، وحوادث ، وأعمال فظيعة ، إلخ ، توقظ على وجه التقريب ضرباً من الإثارة لدى كل الموجودات البشرية التي لم تتعلّم أن تعدّل هذه النزعة أو تجعلها تحود في مكان آخر . وتجاوز عقبة من العقبات ، ومتابعة المرء دربه الخاص ، هما حالتان يرافقهما لدى كل منا ضرب من الإثارة ، مصدر اللذة . وهذه **اللذة** ، التي يمكنها أن تقترن اقتراناً وثيقاً بانفعالات عدوانية ، تشرح إلى حدّ معيّن لماذا كانت هذه الانفعالات قاهرة بهذا القدر وعسيرة على المراقبة . وواضح ، بالإضافة إلى ذلك ، أن بعض أشكـال العدوانية تؤدي دوراً كبيراً في الصراع من أجل الوجود . ففي كل ما يتعلق بالعمل ، وفي اللذائذ أيضاً ، ندرك بوضوح أن ثمة خاصة ذات قيمة تغيب لدى الأشخاص الذين لا يملكون ما يكفي من العدوانية ولا يمكنهم أن يوطّدوا أنفسهم في الخصومة . والواقع أن بوسعنا القول إن غريزة المحافظـة على البقـاء وغريزة « الحب » تحتـاجان ، إذا كان لا بدّ لهمـا من نيـل

الإشبــاع ، إلى جرعة من جرعات العدوانيـة ، وأعني أن العنصر العدواني جزء أساسي من هاتين الغريزتين عندما تمارسان عملهما في الواقع .

ومع أننا جميعنا نعلم ، أو علينا أن نعلم ، أن العواطف العدوانية موجودة فينا ولدى الآخرين ، فـإننـا لا نحب هذه الفكرة كثـيراً . وعندئذ نقـلّل ، بصـورة لاشـعورية ، من أهميتها ونقدّرها بأقلّ من قدرها . ولا نحتفظ بأعيننا مثبّتة على هذه العواطف ؛ بل ، على العكس ، نبعدها إلى الحدود الخارجية لحقل الرؤية لدينا ولا ندعها تساهم في رؤيتنا مجموع الحياة . وهي لا تبدو ، بوصفها محجوبة بعض الشيء ، قريبة كل القرب ، وعلى قدر كبير من اليقظة والواقعية والحياة ، وبالتالي ، على قدر كبـير من إثارة القلق ، إلا إذا كنا نميّزها بوضوح . وتلك ، بالطبع ، طريقة بدائية جداً لإزالة الخوف الذي تسبّبه هذه العواطف لنا ؛ إنها طريقة تشدّ عزيمتنا ولكنها لا تقدّم منافع واقعية . يضاف إلى ذلك أن من المتعذر ، فيما يخصّ العمـل العلمي ، أن نختار وندرس دراسـة دقيقة بعض العناصر من كلّ ونجهل العنـاصر الأخرى . وعلى هذا النحو علّمنا التحليل النفسي أن لهذه العناصر ، المعروفة جيداً ولكنها الكريهة ، نتائج ذات مدلول أكبر بكثير ، وأعظم أهمية ، وأكثر **ديناميكية** ، مما يعتقد الناس بصورة عامة .

وثمة شرح واضح لعواطف العداوة ، أقلّه بالنسبة لكثير من الحالات ؛ ذلك أن الأشخاص الذين يعانون هذه العواطف ليسوا سعيدين بقدرهم أو شروطهم الحيـاتيـة ، وليسوا راضـين عنهما . وسواء أكان الأمر متعلّقاً بشيء ضروري لا يمكنهم الحصول عليه أم بلذة ليسوا قادرين على إشباعها ، فإنهم يعانون عاطفة الإحباط . وغنيّ عن البيان أن ضرباً من الهجوم ، أو محاولة السرقة ، أو الإساءة والتسبّب بضرر على هذا النحو ، تولّد عواطف عدوانية لدى أي شخص سويّ ولدى معظم الحيوانات . وثمة مع ذلك ، إلى جانب الهجوم الموجّه من الخارج ، مصدر آخر من مصادر هذه العاطفة ، عاطفة الإحباط والألم . فقد تولّد الرغبة

غير المشبعة فينا ، إذا كانت حادّة إلى حدّ كاف ، هذه العاطفة ذاتها وهذا الألم نفسه ، وتثير العدوانية ، كما يفعل على النحو نفسه تماماً ضربٌ من الهجوم . ولهذه الاستجابة الإنسانية أهمية كبرى في المسائل الاقتصادية . ومن المعروف جيداً أن العدوانية تستيقظ لدى الناس والطبقات ذوي وسائل العيش غير الكافية ، إلا إذا كانوا في حالة يائسة من الخمود والعطالة[١] . وثمة مسألة أخرى ربما يفهمها الاقتصاديون أفضل مما يفهمها الآخرون ، إنها درجة **التبعية** لدى العضوية البشرية بالنسبة لمحيطها . فثمة ، في نظام سياسي واقتصادي مستقر ، حرية ظاهرة كبيرة ومناسبات عديدة لإشباع حاجاتنا ، مع أننا لا نشعر على وجه العموم بأننا تابعون للتنظيم الذي نعيش في أحضانه ــ إلا إذا حدثت على سبيل المثال هزة أرضية أو إضراب ! ومن الممكن عندئذ أن نتحقّق بنفور ، وبضغينة عنيفة على الغالب ، من أننا تابعون للآخرين ولقوى الطبيعة إلى حدّ بعيد جداً . والتبعية يستشعرها المرء خطرة لأنها تنطوي على إمكان الحرمان . فثمة رغبة ، ليست قابلة للتحقّق ، في أن يكتفي المرء بذاته ، يمكنها أن تبرز للعيان . وقد يتيح المرء لنفسه ، في بعض الشروط الحياتية ، وهم ضربٍ من الحرية المستقلة بوصفه لذة في ذاته .

وثمة مع ذلك استثناء كبير على ما تقدّم ــ وضعٌ في الحياة نشعر جميعنا خلاله بأننا تابعون ، أياً كانت الظروف ــ وأريد الكلام على علاقات الحب . وهنا إنما تربطنا الرغبة بالآخرين[٢] . ومن الواضح أن تبعيتنا لهم شرط من شروط

---

(١) ــ إن أي ضرب من تجلّي العدوانية في هذه الشروط علامة أمل ؛ ولا أقول إن الأمر بالضرورة أمر استجابة إيجابية أو استجابة تقود إلى النجاح ، ولكنه بوصفه تجلياً سيكولوجياً ، فإنه خطوة أقرب إلى تحقيق الرغبة مما هو عليه اليأس الكامل .

(٢) ــ من المفيد مع ذلك أن نشير إلى أن ثمة ميلاً سيكولوجياً قوياً يتجلّى الآن لتقليص قوى الحب في العلاقات الغلمية بهدف مقاومتها . والسبب كامن في أن هذه العلاقات تنطوي على درجة معيّنةمن الإكراه والتبعية بالنسبة لكل فرد . فبعض الشباب لا يقبلون أن يعانوا =

الحياة في جميع جوانبها : سواء ما يتعلّق بغريزة المحافظة على البقاء والجنسية أو بالبحث عن اللذة . وذلك يعني أن المشاركة ، والانتظار ، والتخلّي عن شيء من الأشياء للآخرين ، هي أمور ضرورية إلى درجة معيّنة . وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون إيجابياً من وجهة نظر الأمن الجماعي ، فقد يحدث أن يكون الأمن الفردي مهدّداً في الوقت نفسه . وهذا هو السبب الذي من أجله تنزع هذه العلاقات ، علاقات التبعية ، إلى أن تثير مقاومة وعواطف عدوانية .

وبوسع التحليل النفسي أن يكتشف هذا الحصر ، حصر التبعية ، في أوضاع عديدة إلى الحد الأقصى ، بالعودة إلى الحصر البدئي جداً الذي عشناه جميعنا في الطفولة الأولى ، حصر الطفل على ثدي أمه . فالرضيع على الثدي تابع تبعية كاملة لشخص آخر ، ولكنه لا يخشى ذلك ، في البدء على الأقل ، لأنه لا يعلم أنه تابع . والواقع أن الرضيع لا يعرف وجوداً آخر غير وجوده (ثدي الأم ، بالنسبة له ، ليس سوى جزء من ذاته ، لكي يبدأ بمجرد إحساس) ، ويتوقّع أن تكون رغباته كلها مشبعة . ويرغب الرضيع في الثدي حباً بالثدي ، وللذةٍ في مصّ الحليب ، وليسكّن جوعه أيضاً . ولكن ماذا يحدث إذا لم يكن هذا التوقّع وهذه الرغبة مشبعين ؟ والرضيع يجتاز الشعور بتبعيته ، في نطاق معيّن ، ويكتشف أن ليس بوسعه أن يشبع رغباته الخاصة جميعها ؛ فيبكي ويصرخ ؛ ويصبح عدوانياً . وينفجر بصورة آلية على وجه التقريب كرهاً ورغبة لا تقاوم في العدوان . وإذا استشعر الفراغ والوحدة ، فإن ثمة استجابة آلية تستقرّ ، استجابة سرعان ما تستولي عليه وترهقه ، وثمة غضب عدواني يبرز للعيان ، غضب مصدر ألم وإحساسات جسمية بالانفجار ، والحروق ، وضيق التنفس ، والاختناق .

= أي عاطفة من عواطف **الحب** ، حتى إلى شريك جنسي أو طفل . والتبعية تجعلهم يخافون كثيراً بحيث يحاولون إقامة العلاقات الإنسانية على مجرد العقل .

وهذه الإحساسات ، بدورها ، تحدّد لاحقاً بعضاً من إحساسات العوز والألم والخشية . وليس بوسع الرضيع أن يقيم ضرباً من التمييز بين « الأنا » و« اللا أنا » ؛ والإحساسات التي يعانيها تكوّن عالمه ، وهو **العالم** بالنسبة له . وهو ، لهذا السبب ، عندما يشعر بالجوع والبرد ، أو عندما يكون وحيداً ، فذلك كما لو أنه لم يكن ثمة في العالم حليب ، ولا هناء ، ولا لذة : فجميع هذه الأشياء ذات القيمة في الحياة اختفت . وعندما تعذّبه الرغبة أو الغضب ، يرافقهما التغوّط الذي لا يُقاوم ، تغوّط يسبّب ضيق التنفّس والصراخ والألم والجفاف ، فإن عالمه يكون عالماً من الألم ، والجفاف أيضاً ، والتمزّق والعذاب . وهذه الحالة ، التي مررنا بها جميعنا بوصفنا رضّعاً ، تركت نتائج سيكولوجية كبيرة على حياتنا[1] . إنها تجربتنا الأولى لأمرٍ شبيه بالموت ، إنه استشفاف إمكان اللا وجود ، إنه الإحساس بخسارة فادحة بالنسبة للذات وللآخرين معاً . وتتيح هذه التجربة ضرباً من **احتياز الشعور بالحب** (على صورة الرغبة) **واعترافاً بالتبعية** (على صورة الحاجة) ترافقه في الوقت نفسه عواطف وإحساسات لا تقاوم من **الألم والتهديد بالتدمير** من الداخل والخارج ، عواطف وإحساسات ترتبط بهذا الاعتراف ارتباطاً لا تنفصم عراه . فعالم الرضيع يفلت من تأثير الرضيع . وفي هذا العالم ، عالمه ، يحدث إضراب وهزّة أرضية ، كل ذلك **لأنه** يحب ويرغب ، ولأن مثل هذا الحب يمكنه أن يجلب الألم والخراب . وليس بوسعه مع ذلك أن يسود ، أو يستأصل ، رغبته ، ولا كرهه ، ولا جهوده التي تبتغي أن يمسك وينال . وهذه الأزمة كلها تدمّر هناءه .

---

(١) ــ يبدو أن هذه التجربة السيكولوجية خاصة من الخصائص التي أفضى إليها التطور الإنساني . إنها ذات طبيعة هي طبيعة المرحلة الطويلة من العجز والتبعية الجسمية ، التي يمرّ بها صغير الإنسان إذا قارناه بالحيوانات .

والاستجابة المباشرة لهذه الظروف المؤلمة تكمن في أنه يحاول أن يظفر ظفراً جديداً بقليل من هذا الأمن السعيد الذي شعر به قبل أن يستشعر الحرمان وقبل أن تستيقظ دوافع التدمير لديه ، وفي أنه يضع هذا القليل من الأمن موضع الحماية . وعلى هذا النحو إنما تنمو حاجتنا الكبيرة إلى **الأمن** لتقاوم هذه المخاطر المرعبة ، وتقاوم هذه التجارب من الحرمان التي لا تطاق ، ومن فقدان الأمن ، ومن عدوان الداخل . وانطلاقاً من هنا إنما نبدأ جميعنا ــ وتلك مهمة تدوم مدى الحياة ــ في محاولة لتأمين المحافظة على البقاء وتأمين لذائذنا ، إذ نتعرّض تعرّضاً أقلّ ما يمكن إلى مخاطر مفادها أن نوقظ في أنفسنا قوى التدمير التي قد تنطوي أيضاً على تدمير الآخرين .

وغنيّ عن البيان أننا لا نحتفظ بذكرى ــ الوعي ــ هذه التجارب الوجدانية الأولى ، ولا بذكرى التكيّفات التي ترافقها ، تكيّفات هي نتيجة هذه التجارب . وتظلّ هذه العواطف والتجارب كامنة في لاشعورنا . ومن الحب ، والخوف ، والكره ، التي تسود في اللاشعور طوال الحياة ، ثمة جزء صغير سيصل وحده يوماً من الأيام إلى أن يكون معروفاً من الشعور . والغالبية العظمى من الحالات التي وصفتها هنا تظلّ إذن إلى الأبد لاشعورية فينا . وبوسعنا أن نقول عن التحليل النفسي إنه دراسة دافعيات السلوك الإنساني ، دافعيات شرحها غير ممكن حتى الوقت الراهن لأنها كانت لاشعورية ، أي أننا لا نعرفها .

فالكره ، والعدوانية ، والحسد ، والغيرة ، والرغبة في التملك ، جميع هذه العواطف التي يحسّ بها الراشد ويعبّر عنها هي في الوقت نفسه مشتقّات من هذه التجربة البدئية (مشتقات في منتهى التعقيد بصورة عامة) ومن ضرورة السيادة عليها إذا شئنا أن نبقى أحياء وننال بعضاً من اللذة في الحياة . ومهما يكن ممكناً أن تبدو هذه العواطف لدى الراشد عدوانية ومقيتة ، فهي ليست في الواقع ، إلى حدّ من الحدود ، سوى تعديلات وتسويات لاشعورية لمظاهرها على صورة لا تزال

أكثر بساطة وطبيعية . يضاف إلى ذلك أن جميع جهودنا لبلوغ الأمن ترتبط ، على نحو من الأنحاء ، باستخدام الدوافع الليبيدية (قوى الحياة) ، على الرغم من أن هذه الدوافع يمكنها أيضاً ، في بعض الأحيان ، أن لا تبدو إلا على أشكال منحرفة جداً وتتعذّر معرفتها .

ثانياً ــ الإسقاط

الإسقاط هو إجراؤنا الأول من إجراءات الأمن ، وضماننا الأكثر أساسية (الذي ينجم عنه كثير من الضمانات الأخرى) من الألم ، والخوف من الهجوم أو من العجز . وكل الإحساسات ، وجميع العواطف ، التي يستشعرها ذهننا بوصفها مؤلمة أو كريهة ، تُنبذ مباشرة إلى خارج أنفسنا بآلية الإسقاط ؛ ونفرض أنها موجودة في مكان آخر ، لا في أنفسنا ؛ إننا ننكرها ونرفض أن تكون انبعاثات من أنفسنا ؛ ونفرغها على شخص آخر من الأشخاص . وحين نعترف بأن هذه القوى ، قوى التدمير ، موجودة فينا ، فإننا نقول إنها قدمت إلينا قدوماً اعتباطياً تحت تأثير عامل خارجي ، وأن عليها أن تعود من حيث أتت . والتمايز لدى رضيع من الرضّع ، كما قلت ، بين الحالات المستحبّة والمقيتة التي يستشعرها في نفسه ، بين العواطف الجيّدة والرديئة التي يعانيها ، ينعكس على العالم الخارجي : إن هذا التمايز يؤثّر على التمايز لديه بين الأشياء الجيدة والأشياء الرديئة ، بين الأشخاص الطيبين والأشخاص السيئين ، الذين يوجدون في العالم الخارجي بالنسبة له . والإسقاط هو استجابة الرضيع الأولى للألم ويظلّ دون شك ، لدى كل فرد منا ، الاستجابة الأكثر عفوية أمام الألم[1] . ويتيح لنا لاحقاً تطور جهازنا

(١) ــ والواقع أن هذه الظاهرة ليست ذات علاقة بالعواطف النفسية ذات الطبيعة الكريهة فحسب ، بل نلاحظها أيضاً فيما يخصّ الألم الجسمي . فالإنسان الذي كان طبيب الأسنان قد خدّره تخديراً غير كاف خلال استئصال سنّي ، يفتح عينيه خلال العملية ويرى **ألماً حاداً في السقف** ! وكان هذا الألم بعد ثانية في فمه .

النفسي ، وفق درجة متنوّعة ، أن نمنع نجاح هذه الاستجابة البدئية والذاتية ، أو أن نسيطر عليها وننيب منابها طرائق أخرى أفضل تكيّفاً مع الحقيقة والواقع الموضوعي للوضع الذي نجد أنفسنا فيه .

وأكثر الأمثلة بساطة على الإسقاط ، في حياتنا اليومية ، مثال **وأنت أيضاً** . فإذا عزا إلينا أحدهم أمراً كريهاً ، فإننا نفرض على التوّ غالباً أن هذا الأمر موجود في نفسه بالفعل . وليست الإثارة ، على الأغلب أيضاً ، ضرورية . وذلك أمر ظاهر للعيان ، على سبيل المثال ، فيما يخصّ العواطف لدى رجل الشارع الذي يرى الخبث والعدوانية في البلدان الأخرى ، لا في بلده . والأمر ذاته ينطبق على أفكاره عن الحزب السياسي المعارض لحزبه . فما يفعله الحزب المعارض خطر إلى الحدود القصوى ومدمّر وأناني ، في حين أن مقاصد حزبه ودوافعه نقيّة وصائبة بقدر ما يستطيع المرء أن يتصور . وثمة أناس عاديون تماماً يميلون في عملهم إلى أن يروا ضرباً من الشراسة للربح ، وأنانية ، وعدوانية لا رحمة فيها ، إما لدى أرباب عملهم ، وإما لدى مستخدميهم ، بحسب الموقع الذي لا يشغلونه هم أنفسهم .

وبوسع المرء أن يجد ، في موقف الإنسان من الموت ، مثالاً آخر على القوة العظمى للإسقاط وللعمل الوظائفي الكلي لهذه الآلية . وأؤكد أن ما نخشاه أكثر ما نخشى هو قوى التدمير التي تعمل فينا ضد أنفسنا . ويمثّل الموت ذلك التدمير الأقصى الذي يمكننا أن نتصوره ، ومن الطبيعي أن موتنا الخاص يمثّل أوج قوى التدمير التي تعمل **داخل** أنفسنا . ومع ذلك فإن واقع الموت لم يكن في الحقيقة معترفاً به على أنه ضرورة طبيعية إلا خلال القرنين الأخيرين أو القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ الإنساني الطويل ، ضرورة طبيعية تعقب سيرورة من التدمير داخل أجسامنا . فالمتوحش البدائي يعتقد أن الموت ترسله إليه إرادة قوة خبيثة ، خارجية بالنسبة له (الشياطين) . وإرادة القوة الخارجية الخيّرة ، الله ، كانت

دائماً تُعتبر ، في ثقافاتنا الأكثر تطوراً ، أنها هي المسؤولة . وواقع الموت الجسدي ، حتى في هذه الثقافات ، كان منفيّاً عندئذ ، إذ يموّهونه إذا صحّ القول بالاعتقاد بخلود روحنا .

وخطوتنا الأولى لنحتمي من المخاطر التي تهدّد الذات من خارجنا أصبحت ممكنة على هذا النحو بفعل الإسقاط . وإذ نجحنا ذهنياً في أن نحدّد مكان الخطر خارجنا ، وأن نكثّفه ، فإننا نباشر عندئذ مناورة إسقاطية ثانية تكمن في أن نفرّ غ شحنة الدوافع العدوانية فينا على صورة هجوم على الخطر الخارجي : إن العدوانية الأولى التي تكوّن خطراً تُطرد وتتحدّد في مكان آخر بوصفها أمراً سيئاً ؛ ثم يصبح الموضوع ، الذي يُضفى عليه الخطر ، هو الهدف الذي نفرّ غ عليه شحنة العدوانية التي تتكوّن لاحقاً . فالعدوانية والكره اللذان يغليان في أنفسنا ، نحسّ بهما أول الأمر ، كما قلت سابقاً ، على أنهما لا يُقهران . ويبدوان ، في تجربتنا الأولى عنهما ، أنهما يتفجّران فينا ، إذ يغمران أجسامنا ويحرقانها ، ويرهقانها . وسيشعر الناس أيضاً ، فيما بعد خلال حياتهم ، بأنهم سيتفجّرون غيظاً ، ويتحرّقون رغبة في أن يمسكوا ما يريدون ، ويكتوون بنار الشهوة في أن يقتلعوا عينيّ أحد الناس (أو جزءاً آخر من جسمه) ، ويختنقون ويغصّون بانفعال مقموع . وسيبدو ذهنهم عندئذ أنه لم يعد يعمل عمله الوظائفي ؛ ولن يكون بوسعهم أن يفكروا بالأمور الأبسط . ولن يكون بإمكانهم أبداً أن ينجزوها ، وأن ينجزوا العمل على وجه الخصوص : وربما لن يكونوا قادرين أبداً على أن يفكروا ، خلال زمن معيّن ، بسلامتهم الجسمية . وعندئذ يكون لدينا الانطباع بأن ذلك كله **ما كان ينبغي** أن يحدث لنا ، وأن علينا أن نفرغ على وجه السرعة شحنة هذا الكره وهذا الغيظ في مكان آخر . فالطفل الذي يفيض كرهاً لشخص محبوب ، سيضرب طفلاً آخر أو يعذّب لعبه ؛ وسيعضّ امرأته رجلٌ غاضب من رب عمله . تلك هي حكاية كبش الفداء . فالمتوحش البدائي يوسع صنمه ضرباً

عندما يخيّب الزمن أمله . ونحن نتصرّف على النحو نفسه حين نعزو الشر إلى أشخاص آخرين بعيدين عنا ، أو هم على الأقل بعيدون عنا بعداً لا يُستهان به . ونحن لا نستشعر الحاجة إلى أن نحب الآخرين كما نحب أولئك القريبين منا . وسيكون هؤلاء الآخرون على وجه الاحتمال غرباء ، رأسماليين ، عاهرات ، أو إنهم عرق مقيت على وجه الخصوص ، أو قد يكونون أيضاً جماعة لدينا الانطباع بالقدرة على طردها وكأنها نذير شؤم إذا كنا نحسدهم . وتكوّن هذه الأعمال وهذه الاتجاهات العدوانية (بالنسبة للاشعورنا على وجه الخصوص) طرائق في تفريغ شحنة الكره والانتقام ، **ليست خطرة** بصورة نسبية إذا قارناها بالتعبير الأول لهذه الدوافع ، الأبسط والأعمق ، أي بالحركة التي تبتغي ، في سبيل الانتقام ، أن تسرق الشخص الذي يُناط به أمرنا وتدمّره ، هذا الشخص الذي قد يكون في الوقت نفسه أيضاً محبوباً ومرغوباً (كتدمير الأم ذاتها في الطفولة ، أو تدمير الأب والرضيع اللذين تحبهما ، وهما كجزء من الأم) .

نحن نقسم الناس إلى قسمين ، « طيبين » و« سيئين » ؛ أولئك الذين يروقون لنا ونحبهم ، وأولئك الذين لا نحبهم أو نمقتهم ؛ ونحاول على هذا النحو أن نعزل الحب والكره **ونحدّد لهما موضعاً** ، ونحاول أن نمنع تداخل الواحد منهما بالآخر . وهذا المخرج يتيح لنا أيضاً أن نستشعر **اللذة** ونحن نشبع عواطفنا العدوانية دون أن نسبّب ، آملين ، أذى مقابلاً . وهكذا فإننا نجد لأنفسنا موضوعات يمكنها ، دون ضرر ، أن تصبح أهداف عدوانيتنا وكرهنا ، على النمط الذي نجهّز به منازلنا بالأمكنة والأحواض التي يمكنها ، دون ضرر ، أن تستقبل الإفرازات الكريهة أو الضارة التي تفرزها أجسامنا . وهاتان وسيلتان نموذجيتان ، إحداهما سيكولوجية والأخرى مادية ، نحاول بهما ، إلى حدّ معيّن ، أن ننقذ من الخطر حياتنا وصحتنا الجسمية والنفسية وصحة أولئك الذين نحبهم ويُناط بهم أمر وجودنا ولذائذنا . وبوسعنا عندئذ أن ندع عداوتنا وكرهنا يَنصبّان صوب هذه الأماكن السيئة التي

أوجدناها نحن أنفسنا أو ساعدنا في وجودها . وليس علينا ، ولنضرب أمثلة على ذلك عادية جداً ، سوى أن نفكر بالعداوة المألوفة جداً التي يعانيها بعض الأطفال الصغار لأبناء عمومتهم ، وعلى وجه الخصوص عندما تكون بالحري علاقاتهم بإخوتهم وأخواتهم جيّدة . ويصبح أبناء الأعمام إخوة ظلٍّ نصبّ عليهم ما يمكننا تسميته ، في الواقع ، « كرهاً أخوياً » مقموعاً . (وقد يحدث أيضاً ، على العكس ، أن يفيد أبناء العمومة من حب ممتنع على الإخوة والأخوات) . يضاف إلى ذلك أن الأطفال الذين يتمنّى آباؤنا أن نصبح أصدقاء لهم هم أطفال نمقتهم بحرارة على وجه العموم ، والسبب بصورة خاصة أن آباءنا يحبونهم ويطرونهم في حين أن لدينا الانطباع ، على الأغلب ، بأن هؤلاء الآباء يقضون أوقاتهم في توجيه اللوم إلينا وإغاظتنا . فثمة أطفال يُقال عنهم إنهم « لطفاء » جداً يبدون لنا مقيتين على وجه الإطلاق .

وكل العواطف التي نستشعرها في البدء لبعض الأشخاص يمكنها أيضاً أن تنتقل إلى الأشياء وتنزاح عليها . وتلك وسيلة لتموضع العواطف دون أذى . فلنفرض ، لكي نضرب مثالاً على ذلك ، أن امرأة تفكر فجأة أنه لم يعد لديها « شيء » ترتديه ، وأن كل ثيابها « منتهية » ، بالية وبشعة ؛ فخشيتها الأعمق ، أول الأمر ، من أنه ليس لديها الحيوية الكافية في نفسها (أو ليس ثمة حب كاف ، وذلك هو التمثيل السيكولوجي للحياة الجسمية) ، تجعلها تشعر ، لتعوّض هذا النقص ، أنها **تابعة** لثيابها . فهي إما أنها أسقطت على هذه الثياب كلية نفسها ، وإما أنها أسقطت هذا الجزء من نفسها الذي تصفه ، في لاشعورها ، أنه « لا شيء » أو أنه « منته » . ثم إنها تهاجم ما أسقطته في الحالين وكأنه عدوها الذي يريد بها الشر . وربما ستقنع زوجها فيما بعد أن يشتري لها ثياباً جديدة ، وستجد على هذا النحو منفذاً لشرهها وعدوانيتها . وهي ، بالمناسبة نفسها مع ذلك ، تصونه ، وهي أيضاً ، وذلك تعبير أكثر مباشرة وأكثر خطراً عن هذه

العواطف ، كما لو أنها تريد أن تسرقه ، توجّه إليه اللوم ، وتلاحقه بالشكاوى ، وتبحث عن الخصومة ، إذ تجازف على هذا النحو بأن تفسد تماماً حبهما المتبادل .

ثالثاً ــ التشتّت

تتيح لنا هذه الآلية أن نقيّم الأهمية الكبرى ، في اقتصاد حياتنا الوجدانية ، لعامل التوزع في مجال الحب والكره ، أهمية تماهي على وجه الضبط تلك الأهمية في الأنظمة الاقتصادية الأخرى في الحياة الإنسانية . فكرهنا موزّع على نحوٍ أكثر حرية من توزّع حبنا ، ولكنه هو أيضاً أشدّ قمعاً في مصدره ــ داخل أنفسنا ــ من الحب مع أنه يتسرّب عادة من أنفسنا بمقدار أقلّ وشدة أضعف . والسبب يكمن في أن جزءاً كبيراً جداً ، لدى راشدين أسوياء ومستقرين على وجه التقريب من الناحية السيكولوجية ، من دوافعهم العدوانية يُستخدم داخل أنفسهم إما لمكافحة سيل الانفعالات جميعها وشدتها واتجاهها ، وإما لمراقبتها وضبطها ، وتلك انفعالات يثيرها إما الحب ورغبة في الانسجام وإما ضرب من روح الانتقام والتدمير .

ولهذه الطريقة الأساسية في تشتيت العواطف الخطرة وتموضعها نتائج مختلفة وعديدة . ونقول لكي نبدأ ، كما شرحت الأمر سابقاً ، إن الطفل الغاضب الذي تعذّبه قوى التدمير في داخله لديه الانطباع بأن العالم الخارجي ، أي أمه أول الأمر ، يواجه حالة مماثلة من الغضب والعذاب . فهو يدرك الأشياء السيئة في نفسه إذن كما لو أن الأم كانت هي المقصودة أو كما لو أن الأمر أمر عيب فيها ، لا بوصفها عنصراً من نفسه أو عيباً فيها . ويترتب على ذلك ، لدى الطفل الصغير جداً ، أن الإحساسات الجيدة والسيئة تساهم مساهمة واسعة في تكوين الأساس لأفكاره عن العالم الخارجي وعن ما هو جيد بصورة واقعية وسيء بصورة واقعية في بيئته ؛ وعلى هذا النحو فقد يعتبر الجيد سيئاً والعكس بالعكس ، على نحوٍ من

الكلية يكفي لتكون المحافظة على معنى حقيقي للواقع أمراً متعذّراً . وذلك هو ما يحدث في الجنون . ومن الممكن أيضاً أن تمضي بعيداً جداً هذه الضرورة الرئيسة التي مفادها أن تتموضع الأشياء السيئة والمؤلمة لدى الشخص الأكثر اتصافاً بأنه محبـوب ومرغوب ، وأن تقود هذه الضرورة إلى أن يُنبذ هذا الشخص نبذاً غير منصف وأن يُنصرف عنه . وذلك مثال على الصعوبات الكبيرة التي يمكنها أن تنشأ في هذه المرحلة .

رابعاً ــ النبذ

انصرافنا إلى حدّ معيّن عن شيء مرغوب ، لكي نجده على نحو أسهل في مكان آخر ، هو في الواقع آلية أخرى أساسية من آليات تطورنا السيكولوجي . ولم يكن قط ممكناً لأي منا ، من وجهة النظر النفسية ، أن يترعرع لو لم نكن قد عانينا ضرباً من الاستياء من حليب أمنا ، ومن حلمتي ثدييها أو من رضّاعاتنا . وإذ ننصرف عن أهدافنا ونجزّؤها أيضاً ونوزّعها في أمكنة أخرى ، فإن الحاجات الناجمة عن الجوع واللذة الجنسية تنفصل عن الأم . وبالتدريج ، نكتشف الغذاء المنشود في مكان آخر ، غذاء يتصف في وقت واحد بأنه للجسم وللذة الأكل والشـرب . ونكتشف مجدّداً في مكان آخر أيضـاً ، بصورة موازية ، تلك اللذة الغلمية المنفصلة عن الثدي[1] .

---

(١) ــ إننا جميعنا نبحث بصورة لاشعورية ، طوال الحياة كلها ، عن اللذة الغلمية : أي إشباع رغبات الجسم الجنسية . وينالها معظمنا ، بصورة شعورية ، على نحو أو على آخر . واللذة الجنسية لدى الراشد هي الصورة الراشدة الأكثر تطوراً من إشباعات لها الطبيعة نفسها تُنال في زمن مبكّر من الحياة بوسائل مختلفة . ومثال ذلك أن الرضيع على ثدي أمه يستشعر لذة شهوانيـة في أن يمصّ الحلمـة خلال الوقت الذي ينـال فيـه القوت الذي يحتاجه . ولهذا السبب ، يصف التحليـل النفسي بصفة « الجنسية » جميع الأشكال التطورية من اللذة الجنسية . والواقع أن هذه الأشكال تساهم جميعها في تكوين قابلية جنسية نهائية ، وبعضها =

ونحن جميعنا نمرّ بهذه الآلية ، إما أننا كنا نبحث بوصفنا بنات صغيرات (وأخيراً كنا نجد بوصفنا نساء) عن شيء لدى الجنس الآخر يشبه حلمة ثدي ، إنه مع ذلك شيء أفضل لأننا إذ نهب اللذة ونتلقّاها نوجد الحياة واللذة ونهبهما إلى الآخر بواسطة ما لم يكن في الأصل منشوداً إلا بهدف اللذة المباشرة ؛ وإما أن الاستياء من الأم ، بوصفنا صبية صغاراً ، يجعلنا ننصرف عنها ويقودنا على وجه التقريب إلى فصلها إلى جزأين ، إلى فصلها عن حلمة ثديها ، وعن وظيفتها ، وظيفة مفادها أن تهب الحليب . ويجد الصبي الصغير على وجه السرعة أن على جسمه العضو الذي يشبه الحلمة وأنه ينتج سوائل . فيحتفظ به ليستخدمه في خلق الحياة ومنح اللذة . وما يبقى من أمه ، جسمها ، ووجهها المحبوب ، وذراعاها اللتان تحتضنان ، فإنه يبحث عنها مجدّداً في مكان آخر . وعلى هذا النحو ، فإننا نصبح في نهاية الأمر ، إذ ننصرف عن أمهاتنا بسُبُل مختلفة ، رجالاً ونساء راشدين . وهذه السيرورة من الانصراف عن الأم بطيئة وتدريجية في الحالة السوية . ولكن قبول بدائل عنها وعن ثدييها ، حتى لدى الرضّع ، يمكنه أن يتطور على نحوٍ مفاجىء ومرضي . وثمة ضرب من نبذ الأم ، نبذ أكثر مباشرة بكثير وموسوم بسمة اليأس ، قد يتدخّل ، وقد يتدخّل انسحاب ، وضرب من **الحطّ من القيمة** أيضاً لجميع الأشياء الأكثر اتصافاً بأنها محبوبة ومرغوبة[1] ، يمكنه أن يفضي

= (كالمصّ أو المصّ المتحوّل إلى قبلة) يمكنه حتى أن يستمرّ في أن يؤدي دوراً مباشراً في الفاعلية الجنسية الراشدة .

(١) ــ إن ضرباً من الحطّ من قيمة الشيء أو الشخص المحبوب اللذين تخلّى عنهما الفرد أمر محتّم على وجه الاحتمال ، ولو أنه ليس سوى احتياز الشعور بواقع مفاده أن الشخص أو الشيء المرغوب كانا قد أُضفي عليهما صفة المثال إضفاء شديداً . وهذا الحط من القيمة مع ذلك ، كبير الأهمية غالباً ، في اللاشعور ، ويستمرّ على نحو دائم على الرغم من أنه يمكنه أن يتقنّع بعناية في اتجاهات شعورية .

إلى نتائج بعيدة . وقد يكون هذا الحطّ من القيمة ، لدى بعض الأشخاص ، سبباً في غياب الإيمان والثقة بالجيّد ، غياب يحملهم على الحذر مما يجدونه جيداً وعلى تجنّب الأشياء الجيدة . يضاف إلى ذلك أن خيبة الأمل وضرباً من روح الانتقام يدفعانهم إلى النيل من هذه الأشياء الجيدة وتدميرها ، ذلك أن الكره ورغبة في الانتقام قد يرافقان واقع الانصراف عن الشيء المرغوب بحرارة . ومن المؤكد أن بعض الأشخاص ، كالعوانس الأنيسات والكهول العزّاب المحبوبين ، تخلّصوا بطريقة رائعة ، في نفورهم من العلاقات الحميمة ، من هذا العنصر ، عنصر الكره . ونتبيّن على العكس أن ضرباً من الاستياء من مصدر الحياة ، لدى من يتعذّب ومن ضَرَبَ حول نفسه طوقاً من العزلة ، سمّم حياتهما ذاتها على وجه التقريب حين انصرفا عن الأم . وخيبة أملهما الحاقدة تفرغ شحنتها على الغالب في القليل من العلاقات التي لا بد لهما بالضرورة من إقامتها مع بقية العالم .

خامساً ــ الحطّ من القيمة والاحتقار

هذا الحطّ من قيمة الشخص المحبوب أو من قيمة الجيد ، وفقدان الثقة ، جعلتهما حكاية الثعلب و« العنب الحصرم » مألوفين لدينا . وربما يكون ذلك ، على نحو من الأنحاء ، آلية مفيدة ومنتشرة ، إذ تتيح لنا أن نتحمّل خيبات الأمل دون أن نغضب . وهذه الآلية يمكنها ، في الحياة اليومية ، أن تبدو ملائمة جداً لزوج وزوجته ، بحيث لا تكون هذه الزوجة مفتونة بمظهر شيء في دكان من دكاكين السلع الكمالية . وتنطوي هذه الاستجابة مع ذلك على أخطار كبيرة . فهذه المرأة ستكون دنيئة ، ومماحكة ، ومفرطة في النقد ، في مجالات أخرى ، وفي مجال العلاقات الشخصية على وجه الخصوص . فـ « العنب الحصرم » وطريقة الانصراف بازدراء عما نُعجب به ونرغب فيه رغبة فعلية لا يصلح على وجه العموم شؤون الحسنى في العالم . فلنفرض على العكس أن امرأة تقف أمام متّجر مليء

بالسلع الغالية الثمن التي لا يمكنها شراؤها ، وأنها لا تشتري شيئاً منها ، ولكنها تُعجب بها وتحلم ، دون أن تتوقّف عند ما لا يبدو لها جميلاً . إنها ، إذ تسود أمنياتها وتقمعها على هذا النحو ، ستستخدم **بصورة داخلية** قوة خيبة أملها وعواطف الانتقام لديها (عدوانيتها) ، وذلك أمر سيتيح لها أن تستغني عن الشيء المرغوب . وستكون قد حوّلت اتجاه عدوانيتها (إزاء ما لا يمكنها الحصول عليه) ضد نفسها وضد رغباتها في الشراء . وستكون على هذا النحو ، **من الناحية الخارجية** ، ذات كرم يرافقه الحب ، ولكن دون أن تبدّد مالها . أما النموذج السابق من المرأة المفرطة في النقد ، فإنها لا تعيد اتجاه عدوانيتها الداخلية ضد نفسها ، فتدلف في معركة خارجية لتسود رغباتها . إنها تستخدم على هذا النحو طريقة أكثر بدائية لتتخلّص من هذه الرغبات ، إذ توجّه كرهها نحو الخارج وتقلّل في ناظريها من قيمة ما ترغب فيه وتكفّ عن أن تحبّ موضوع رغبتها . إنها طريقة أكثر بساطة وأقل تعقيداً ، تؤمّن لها لذّة أكثر مباشرة من المعركة الداخلية لتسود الرغبة ولكنها تقدّم لها على المدى الطويل منافع أقل ولباقي الجماعة . فالكره ، لا الحب ، يتجه صوب الخارج ؛ إنه مستخدم لاستبعاد الحب وحجبه على الرغم من أن القليل من الحب والكثير من الكره يتدخّل في الحياة في نهاية المطاف .

والانصراف بازدراء عن الموضوع المرغوب ، أو نبذه ، قد يبدو استجابة سيكولوجية خطرة إذا لم تُستخدم على سبيل الحصر لتقليص الرغبة في التملّك ، وإذا كان الانتقام وروح الثأر يوحيانها أيضاً . والبرهان الأكثر إثارة للدهشة هو الحالة التي تقودنا فيها استجابة مماثلة إلى الانتحار عندما تولّد خيبة الأمل والرغبة العنيفة في الانتقام كرهاً من هذا النوع ، ومثلَ هذا الاحتقار للحياة ولكل ما توفّره ، بحيث أن الحياة نفسها تُنبذ وتُدمّر .

وهذه الاستجابة ، استجابة الاحتقار والنبذ ، هي السبب الأكبر أيضاً ، والمصدر الرئيس لمظاهر في منتهى التنوّع ، مظاهر الخداع ، والخيانة ، والتخلّي ،

والغش ، والمكر ، التي نصادفها في الحياة على نحو مستمر جداً ، وعلى وجه الخصوص لدى بعض النماذج من الأفراد عندما تكون هذه الآلية بارزة جداً : لدى الدونجوانيين أو المومسات (فيما يخصّ الجنس) ، ولدى الأشخاص غير المستقرّين الذين يتعذّر عليهم المحافظة على وضع من الأوضاع أو الاستمرار في اتجاه من الاتجاهات (فيما يخصّ غريزة المحافظة على البقاء) . وهؤلاء الناس يقضون حياتهم في البحث والإيجاد ليكونوا فيما بعد خائبي الأمل لأن رغباتهم مغالية ومتعذّرة التحقيق ، إما من حيث نوعيتها وإما من حيث شدتها . وهم ، في نهاية المطاف ، لا ينصرفون عن موضوعاتهم ويحتقرونها وينبذونها إلا ليبدؤوا في البحث مباشرة .

وأودّ أن أذكّر بالهدف هنا أو ، إذا شئتم ، بمبدأ الضرورة اللاشعوري العامل خلف جميع هذه الأنماط المختلفة للاستجابة والسلوك ، خلف التكيّفات والتلاؤمات المختلفة التي أصفها . والهدف يكمن في أن ننتصر على عواطفنا الخطرة والمدمّرة ، وأن نجعلها تختفي بحيث ننال في الحياة الحد الأقصى من الأمن ومن اللذة أيضاً . وفي إبانتي الأخيرة حول الدونجوانيين في مجال الحب وغير المستقرّين في مجال العمل ، بوسعنا أن نميّز الطرائق الرئيسة المستخدمة تمييزاً واضحاً إلى حدّ كاف ، لأنها طرائق مغالاة فاحشة . ونحن نرى كيف أن الرغبات النهمة لدى هؤلاء الأفراد ، رغبات لا تختلف كثيراً في الأساس عن مجرد رغبة في التملك دُفعت إلى الحدّ الأقصى ، تقودهم حتماً إلى أن يكونوا مستائين من كل ما يمكنهم الحصول عليه ، إذ تثير على هذا النحو خشيتهم من التبعية وروح الانتقام وعدوانيتهم . ويهدّدون أيضاً أمنهم الخاص وسكينتهم الروحية وسكينة المرأة التي خدعوها أو أي شخص آخر . إنهم ، على الشخص أو في العمل الذي انتظروه مدة طويلة ، يفرغون من الناحية السيكولوجية شحنة جميع دوافعهم السيئة (الكره ، والرغبة في الامتلاك ، وخيبة الأمل التي تقتضي الثأر) ويدركونها كما لو أنها كانت جميعها

ناجمة عن الشخص أو عن العمل ؛ ثم يعتقدون بصورة طبيعية أن من الضروري والمسوَّغ معاً أن ينصرفوا عن هذا الشخص أو هذا العمل ويهربون منهما .

والهرب ، بصورة أساسية وثابتة ، إجراء من إجراءات الأمن ، ولهذا السبب علينا أن نتساءل عن ما **ينقذه** المرء بالنبذ . وبالنظر إلى أن هؤلاء الأشخاص يشعرون أنهم مهدّدون من جميع الجهات ، فإن الحياة هي التي تصان بصورة أساسية . يضاف إلى هذا أن هؤلاء الأشخاص يحاولون أيضاً أن يجدوا اللذة . فما كان جيّداً بالنسبة لكل منا عندما كنا رضّعاً ، كما قلت سابقاً ، وما كان يهب اللذة والإشباع ، كان شيئاً واحداً وحيداً ، وهذه الإحساسات الثلاثة كانت تُعاش في إحساس وحيد : هناء الجسم والنفس على حدّ سواء ، أي بهجة إلهية . وتظلّ هذه الإحساسات الثلاثة موحّدة في الأعماق حتى نَفَسنا الأخير ، على الرغم من التعقيدات والتمييزات التي نقيمها بينها بصورة شعورية فيما بعد . وإذ نهرب من شيء جيّد أصبح سيئاً على وجه التقريب في أعيننا ، فإننا **نحتفظ** — في ذهننا — بصورة ما كان جيداً ، صورة كانت قد امّحت على وجه التقريب . وحين نكتشف هذه الصورة في مكان آخر ، فكأننا نجعلها تعيش مجدّداً في مكان آخر .

وإذ نكتشف في مكان آخر هذه الحالة من الجودة سليمة معافاة ، فإننا نحاول أن نقوم بضرب من « التعويض » العجيب . فالدونجوانيون وغير المستقرّين يحتفظون على هذا النحو برغبتهم في ما هو جيد سليمة ، بمقدار ما بوسعهم أن يتعرّفوا على ما هو جيد . وهم ينطلقون في كل مرة انطلاقاً جديداً إلى البحث عن أمن أو عن لذة أعظم في الحب أو في الإشباع الجنسي ، أمن أو لذة لم يجدوهما قط ولن يجدوهما أبداً . وبوسع المرء أن يجد في هربهم تفاعلاً بين دوافع الحب والكره . والنبذ يمكنه حتى أن يكون طريقة حب ، مشوّهة بالتأكيد ، ولكن هدفه هو صيانة شيء محسوس بصورة لاشعورية على أنه « أجود من أن أستحقه » .

فالتخلّي « ينقذ » عندئذ حالة الجودة المعترف بها على هذا النحو ، ولا ينالها بسوء ، ويحميها (من دناءتنا الخاصة التي يمكنها أن تدمّرها) . وهذا الشكل من الحب يسود أحياناً في التخلّي ، في بعض أشكال الانتحار على سبيل المثال ، عندما تكون هذه الحالة القصوى من انسحاب الذات تكافىء في ذهن المكتئب أن يهب حياةً ليؤمّن سعادة حياة أخرى . ويجري التمايز نفسه في هذه الحالة والفصل الحاد ذاته بين الحالات الجيدة والسيئة ، تمايز وفصل يطابقان التمايز والفصل اللذين وصفتهما وأنا أتكلم على الإسقاط ، إلا إذا حدثت السيرورة في اتجاه معاكس . فالشخص من هذا النوع مَوْضَع كل ما هو سيء في نفسه ، وقصدُه في الانتحار أن الشر يموت بموته ؛ وهو ، على العكس ، كثّف خارج ذاته جميع رغباته وآماله ، وتطلّعاته صوب حالة من الجودة الخارجية ، ووظّفها في الشخص المحبوب ، شخص يستشعر تجاهه ، وفق إدراكاته الغامضة ، عاطفة التخلّي عن كل ما هو جيد ، بما في ذلك الحياة ذاتها .

وهكذا فإن الحاجة إلى أن يكتشف المرء ما هو جيد في مكان آخر اكتشافاً جديداً ، وإلى أن يفصل هذه الجودة عن الكره والخطر ، يمكنها أن تقوده إلى بدايات جديدة مستمرّة . وهذه الطريقة تتطور لدى بعض الأشخاص على نحو مغال ، ولكن الأشخاص العاديين المستقرّين جميعهم يستخدمونها إلى حدّ من الحدود . فمن يظلّ طوال حياته مع أبويه لا يبحث أبداً عن عمل أو عن امرأة خارج دائرته ، يكون أيضاً على نحو من الأنحاء ، أقل سواء من مهووس جنسي . وميل الإنسان إلى أن يبدأ بداية جديدة هو بالفعل ، على صورة ملطّفة ، عامل كبير خفيّ في ظاهرة كبيرة الأهمية في الحياة الإنسانية ، ظاهرة هي من الأهمية بحيث أن بعض الملاحظين اعتبروها غريزة في ذاتها وسمّوها غريزة القطيع . والحاجة التي يعانيها الإنسان إلى رفقة أمثاله ليست بالطبع مظهراً بسيطاً ، ويبين لنا أن جميع عناصر سيكولوجيته وآلياتها تشارك في هذه الحاجة . وعندما يكون هذا الميل نامياً جداً ،

فالحقيقة على وجه الاحتمال مع ذلك أنه يمثّل على نحو أخص حاجة المرء إلى أن يجمع مقادير كبيرة من الحب ويراكمها ، ومن الدعم **والأمن** ، حب ودعم وأمن ستكوّن احتياطياً جاهزاً على الدوام بوسعه ـــ أي المرء ـــ أن يسحب منه عند الضرورة . وقد قلت سابقاً إن الكره قد يُستخدم لاستبعاد الرغبة أو الحب ، أو لحجبهما . والحب هنا ، لدى أشخاص ذوي غريزة قطيع نامية و« مرموقين جداً » ، هو الذي يستخدمونه لاستبعاد الكره وأخطاره . وهؤلاء الأشخاص يكوّنون جماعة من الأصدقاء حتى لا يجدوا أنفسهم محرومين منهم إذا هجرهم أحدهم . يضاف إلى هذا أن أمر حصولهم على الأصدقاء وكونهم محبوبين يبرهن لهم على أنهم هم ذاتهم جيّدون ، أي أن ما في أنفسهم من خطِر لا وجود له أو أنه كان قد أُقصي دون خطر . وهم يخلقون لأنفسهم ، إذ يجمعون حولهم الأشياء الجيدة التي بوسعهم أن يستغرقوا فيها كل لحظة (باتجاههم الاستيهامي اللاشعوري) ، ضرباً من البديل عن ثدي الأم ، الموجود دائماً تحت تصرفهم ، الذي لن يسبّب لهم الإحباط ولن يعوزهم . وهذا الاستيهام ، ذو الأهمية الرئيسة ، استيهام ثدي منتفخ بالحليب دائماً ، وجاهز تحت الطلب ، هو بالطبع دفاع **أكثر من أي دفاع آخر** ضد يقظة بعض من العواطف الكامنة في نفس الفرد ، إما عواطف البؤس وإما عواطف التدمير . ولهذا الاستيهام بالطبع دلالات كثيرة أخرى بالإضافة إلى الدلالة الخاصة بتراكم جماعات الأصدقاء . إنها الدلالات التي كان يقصدها الإنسان الذي يقول : « كان العالم قوقعته » . ودلالة الاستيهام الأساسية تكمن في أن بوسعنا الحصول على ما نريد فنشعر عندئذ بأننا في منجىً من خطر الوحدة ومن نزعة التدمير اللذين يتجلّيان عندما لا يمكننا الحصول على شيء . ولكن هذه الحاجة يمكنها أن يكون لها جانب تملّكي وتنطوي غالباً على القليل من الاستقلال وعلى القليل ، في الحقيقة ، من الثقة بالاستعداد للاحتفاظ بالأشياء الجيدة في الحياة أو إنتاجها بصورة كافية . فأولئك الذين يبحثون عن الحصول من الآخرين

على الكثير من الأشياء ، من النادر أن يقدّموا كثيراً من الأشياء إلى الآخرين .

والشعبية ، والنجاح الاجتماعي ، وغريزة القطيع ، إلخ ، بمعزل عن استخداماتها ودلالاتها العديدة الأخرى ، هي أيضاً أشكال أكثر اتساعاً وأكثر انتشاراً من سلوك مماثل في الارتباطات الجنسية حقاً ، كالميل إلى أن يسوس المرء كثيراً من الأمور الغرامية ، إما في وقت واحد وإما على التوالي . إنه وضعُ عدد كبير من البيض في سلة واحدة . وتجزيء الشيء الجيد إلى عدة أجزاء يقلّل خطر الإحباط والحرمان ، ويقلّل أيضاً احتمالاً مفاده أن لا تدمّر وتقوّض شراهتنا الخاصة أو قسوتنا الشيء الجيد أو الشخص المحبوب الذي نعلّق عليهما أهمية . والحقيقة أن لدى المرء انطباعاً بأن خسارة جزء واحد من عدد كبير ستكون من الصغر ، بالقياس إلى العدد ، بحيث ستصبح أمراً عديم الأهمية . يضاف إلى ذلك أن ثمة مخرجاً دون خطر بصورة نسبية قد وُجد ، مخرجاً لتفريغ شحنة العدوانية وإشباعها ، وضماناً في الوقت ذاته ضد مفعولاتها .

سادساً ـــ الحسد

هذه الحاجة إلى أن يكون المرء في منجىً من خسارة أو خطر داخلي أو خارجي تقود بعض الأشخاص إلى أن يراكموا ويكوّموا جميع الأشياء الجيدة التي يمكنهم الحصول عليها . وفي الدائرة التي لا نهاية لها ، دائرة الرغبة والإحباط والكره ، من الممكن أن يقودنا ذلك إلى **الحسد** ، إلا إذا أتاح لنا مقدار أكبر من الحب أن نفلت منه . ذلك أن المرء منذ أن يحسّ بالحاجة إلى **الكثير** إحساساً قوياً ، فمن الواضح أن مقارنات تشرع في أن تُقام . ولكن مقارنة بين أنفسنا والآخرين ليست في ذاتها وضعاً بدئياً بسيطاً . إنها نسخة أكثر إعداداً وتعقيداً من الوضع البدئي ، الذي وصفناه سابقاً ، وضع الرضيع الذي يدرك **الفارق** بين حالات الهناء ، حالات جيدة وهنيّة ، والعواطف والحالات المؤلمة والخطرة . وكل

المقـارنات بدأت مع تلك المقارنة . فإعادة حالة الهناء تصبح الحاجة المباشرة . وبالنظر إلى أن هذه الحالة تستقرّ لدى الرضيع بواسطة فمه والحليب على وجه الخصـوص ، فإن سـيرورة الابتلاع والحصول تكتسب بالنسبة لنا دلالة كبيرة بوصفهـا وسيلة تستبعد أو تطرد ألماً ، وتطرد أخطار العواطف العدوانية الناجمة عنـه . وهذا الميـل إلى ابتـلاع شيء جيد لتتعاظم عاطفة الهناء الداخلي يرتبط بسيرورة ذهنية معروفة باسم الاجتياف ـــ المتلازم مع الإسقاط الذي يتصف بأنه سيرورة تطرد إلى العالم الخارجي ما نشعر به في أنفسنا أنه سيء وخطر . وسواء أكان ثمة فوارق جبليّة بين الأفراد فيما يخص أهمية الميل إلى الاكتناز أم لا يوجد ، فالحقيقة مع ذلك أن مغالاة في الرغبة في الابتلاع ـــ بوصفها دفاعاً ضد التفكك الداخلي ـــ عامل هام لا ينقصـه الجشع . فعلاقات الجشع والاكتناز بـ **الأمن** واضحة كل الوضوح على أي حال .

سابعاً ـــ الجشع أو الرغبة في الامتلاك

الجشع موجود ، إلى حدّ من الحدود ، لدى كل منا بصورة لاشعورية . إنه يمثّل جانباً من الرغبة في الحياة ، جانباً يختلط وينصهر بالميل إلى أن نوجّه إلى خارج أنفسـنـا ، ضـد الآخرين ، عدوانيتنـا ونزعة التدمير لدينـا . والجشع ، بوصفـه كذلك ، يدوم بصورة لاشعورية مدى الحياة . وطبيعته ذاتها قُيّض لها أن تكون دون حدود وحدّتها لا تخفّ أبداً . وبالنظر إلى أن الجشع تعبير عن دافع الحياة ، فإنه لا يتوقّف إلا بالموت .

والجشع ، أو الرغبة في تملّك الأشياء الجيدة ، يمكنه أن يكون خاصاً بأي شيء ممكن تخيّله ، شيء يثير فكرة الجيد ، أو يمكنه أن يكون خاصاً بها جميعها : ملكيـات مادية ، مواهب جسـدية أو فكرية ، منـافع وامتيازات . وإلى جانب الإشباع الفعلي الذي تستطيع هذه الأشياء الجيدة أن تقدّمه ، فإنها تعني ، في نهاية

المطاف ، شيئاً واحداً في أعماق لاشعورنا مع ذلك . إنها براهين ، إذا حصلنا عليها ، على أننا ، نحن أنفسنا ، جيدون ، وعلى أننا نفيض بالأشياء الجيدة ، وأننا أيضاً ، بالمقابل ، جديرون بالحب والاعتبار والمجد . وهي في الوقت ذاته ، بالإضافة إلى أنها براهين ، ضمانات ضد مخاوفنا من فراغ داخلي ، وضد ميولنا الخبيثة التي تجعلنا نعاني الانطباع بأننا سيئون ونفيض بالأشياء السيئة بالنسبة لنا وللآخرين . وتفيدنا الأشياء الجيدة أيضاً في أن نقاوم مخاوفنا من الانتقام ، ومن العقوبة أو القصاص ، التي يدلّ عليها الآخرون بسلوكهم تجاهنا ، إما مادياً وإما معنوياً ، أو في علاقات الصداقة أو العلاقات الغرامية . وأي حرمان نحسّ به إحساساً يرافقه الألم الشديد لسبب ذي أهمية مفاده أن هذا الحرمان يمثّل بصورة لاشعورية تلك الفكرة العكسية التي مفادها أننا غير **جديرين** بالأشياء الجيدة ، وأننا نرى مخاوفنا الأكثر عمقاً تتحقّق على هذا النحو . فعندما يبين لشخص من الأشخاص ، عاطفة الأمن لديه قائمة في الجزء الأكبر منها على الرغبة في التملك وعلى الشعور بأن لديه من الأشياء الجيدة ، أو يمكنه أن يحصل عليها ، قدر ما يكون ذلك ضرورياً له ، عندما يبين لمثل هذا الشخص أن أحداً آخر يملك أكثر منه ، فإن ذلك يقلب صرح أمنه الذي كان يحميه . إنه يشعر بأنه ارتدّ إلى الفقر ، كما لو أنه كان في نفسه قليل ، « قليل جداً من الأشياء الجيّدة » . فدفاعه اللاشعوري الذي يحميه لم يختف فحسب ، ولكن هذا الشخص يتصور أن أولئك الذين يمتلكون أكثر منه **سرقوا** بالفعل ما كان يجعله يشعر بأنه محميّ ، وما كان يجعله يشعر بأنه محميّ قد اختفى الآن . ولهذا السبب فإن عاطفة الغيرة ، لدى أولئك الذين يعرفونها ، عاطفة كاوية ومرّة جداً . إن أولئك الذين يعرفونها يشعرون بأنهم مرغمون على تحمّل السرقة والاضطهاد .

ثامناً ـــ الكره الهلوسي

من اليسير أن نرى أن هذا اليقين أو الهاجس اللاشعوري ـــ أولئك الذين يملكون أكثر منا كسبوا ملكيتهم بسرقتنا ـــ معزٍّ إلى حدّ عجيب على الرغم من أنه غير منطقي ، ذلك أن مسؤولية الشعور بأن المرء لا يملك شيئاً ولا يساوي شيئاً ، وعلى وجه الخصوص فيما يخصّ غياب الحب والعطف ، تُلقى على الآخرين على هذا النحو . وهذا اليقين يجلب الغفران عن كل إثمية وشراهة وأنانية نستشعرها إزاء الآخرين ، ذلك أن **هؤلاء** هم السبب في أننا لا نساوي شيئاً . وتنمو أيضاً عاطفتا الضغينة والظلم ـــ فكرة أن أي شخص لا يساعدني ـــ بوصفهما إسقاط معرفتنا اللاشعورية بكسلنا الخاص وخستنا على الآخرين . وهذا الإسقاط ، عندما يصبح شديداً جداً ولا يسبّب له العطف ونفاذ البصيرة إخفاقاً ، هو النواة لمعظم أشكال الجنون الهلوسي التي نتخيّل خلالها أن أشخاصاً آخرين يسرقوننا ويسمموننا أو يتآمرون علينا .

وثمة أيضاً غيرة هلوسية . والواقع أن بين الحسد والغيرة علاقات وثيقة جداً . فالشخص الغيور يتخيّل دائماً أن ثمة من يسرق منه الشخص المحبوب . ولا تصبح عاطفة المرء بأنه مسروق عاطفة هلوسية مع ذلك إلا عندما يوجد في نفسه شكٌّ أساسي جداً فيما يخصّ إمكاناته وقدراته الخاصة على الحب والعطف ، ويأسٌ عميق ، بحيث أنه يشعر شعوراً مطلقاً بأنه تحت رحمة الشر وبأنه تنقصه الوسائل للتصدي له . إنها عاطفة يعانيها معظمنا معاناة نادرة لحسن الحظ إلا ، على وجه الاحتمال ، عندما نتألم لخسارة فعلية وخطيرة كموت الأشخاص الذين نحبهم . وهذه العاطفة اللاشعورية ، عاطفة خزينا الكامل (بالنظر إلى أننا لم نفعل للشخص المحبوب أكثر ما فعلنا) تشكّل جزءاً من حزننا .

ونحن نميل إلى أن نعتبر الغيرة عاطفة طبيعية أو ضرورية . والحقيقة مع ذلك

أن العواطف العنيفة ، عواطف الغيرة ، هي واقع بعض الأشخاص على وجه الحصر ، أياً كانت الظروف . ونحن نعرف جميعنا هذا النموذج من الأشخاص الغيورين بالفعل الذين يبدون دائماً مستائين ، مهتاجين ومتألمين ، عيونهم الحادة تبدو أنها تقيم موازنات لا نهاية لها ، ولا يمكنهم التفكير إلا **بما لا يملكون** . وهؤلاء الأشخاص هم على الغالب في حال من اليسر من وجهة النظر المادية ، أكبر من حالة اليسر لدى أولئك الذين يحيطون بهم . وعندما تبلغ الغيرة هذه النقطة ، تصبح الحلقة مفرغة ، ذلك أن عاطفة الخطر لديهم (الناشئة من رغبتهم الخاصة في التملك) تكون عنيفة إلى درجة ينبغي لهم أن يحتجّوا ويصرّحوا بأنهم لا يملكون شيئاً ، أي أنهم **ليسوا** مجرمين لأنهم يرغبون في التملك وليسوا مجرمين لأنهم يأخذون لأنفسهم ويراكمون الثروة ، ولأنهم يسرقون من الآخرين أشياء جيدة ليغتنوا هم أنفسهم ؛ وذلك بدلاً من أن يكونوا قادرين على الحصول والاكتساب لأنفسهم قدرة أكبر ، وأن يستمتعوا بالإشباعات والأمن اللذين تجلبهما الثروة . وثمة حالة متواترة هي حالة شخص لا يبذل أبداً ، على الرغم من أنه غيور ، أي جهد لينال شيئاً أو ليحصل عليه ، ولا يحاول أبداً أن ينجح على نحو من الأنحاء . وهنا إنما نرى بوضوح أن الغيرة والفشل يبرهنان له على أنه لا يأخذ في الواقع شيئاً من الآخرين . ومع أن هذا الاتجاه السيكولوجي مفيدٌ إلى حدّ كاف لهدف الحصول على أمن وهدف الاطمئنان ضد الخوف ، فإن المسألة مسألة تطور مرضي لا يجعل هؤلاء الأشخاص سعداء ، حتى أمام أنفسهم . والواقع أن الأشخاص الغيورين ، الذين يقضون زمناً طويلاً ويصرفون كثيراً من الطاقة ليشعروا بأن الحياة حرمتهم وأحبطتهم ، لم يعد بإمكانهم أبداً أن يستمتعوا بالحياة مباشرة . إنهم يستمتعون بها مع ذلك استمتاعاً غير مباشر إذ يشعرون بأن الآخرين حرموهم ونالوا منهم . فالتشهير بأولئك الذين يملكون ثروة أكبر والتقليل من اعتبارهم لذةٌ سادية عدوانية ، على الرغم من أن هذه اللذة لا يمكنها أن تتجلّى إلا على نحو غير

مباشر . يضاف إلى ذلك أن ثمة ضرباً من الحب ، محجوباً ومشوّهاً جداً ، يكمن في كون المرء لا يأخذ لنفسه شيئاً جيداً أياً كان ويقتصر على التمنّي والغيرة .

تاسعاً ــ الغيرة من الجنس الآخر

أحد أشكال الغيرة الأكثر أهمية ، الشكل الذي لا نشعر به عادة إلا شعوراً قليلاً ، هو الغيرة التي نستشعرها جميعنا إلى حدّ من الحدود إزاء أشخاص من الجنس الآخر . ولا تصبح هذه الغيرة شعورية إلا لدى النساء اللواتي يعتقدن بأن الرجال يتمتعون ببعض المزايا التي يرغبن فيها ، ولدى الرجال الذين تكون حياتهم الغلمية جنسية مثلية بصورة شعورية . وفي الحالات الأخرى ، لن يتعرّف أحد من الناحية العملية على الغيرة أبداً . وهي ، مع ذلك ، موجودة إلى درجة معيّنة لدى كل فرد منا ، وقد يحدث أن تكون قوية جداً من الناحية اللاشعورية دون أن يشتبه بها ، لهذا السبب ، ذلك الشخص الذي يعانيها . وعندما لا تكون الاتجاهات الثنائية الجنسية في تكوين الشخصية كلها مندمجة كل الاندماج وممتزجة كل الامتزاج ، وعندما تكون الاتجاهات المذكرة والمؤنثة لا تنفكّ تتناوب أو تكون في حالة نزاع ، يتبيّن أشخاص آخرون ، على الأقل ، مظاهر الدلالة الأصلية والبسيطة لهذه الاتجاهات . ويعتقدون أن « الآنسة أو السيدة سميث امرأة مذكّرة بالحري » وأن السيد روبنسون « ضعيف » بالحري ويتصف بسمات أنثوية ، ربما كالنزعة إلى الاستعراء . ولهذا الضرب من الغيرة أهمية كبرى ، والقليل مما سأقوله هنا لن يكون بوسعه أن يوفّيها حقها من الدراسة . وهذه الغيرة ناجمة ، على نحوٍ واضح ، عن عاطفة العوز والرغبة في أن نملك أكثر مما لدينا . والتمني ذو علاقة في أعماق أنفسنا ، ولدى الأطفال الصغار ، بما لا نمتلك ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وبأجزاء الجسم ، وبوظائف لن نمتلكها أبداً . فالبنات يغرن من الصبيان والرجال بسبب عضو الذكر لديهم وما يمكنهم أن يفعلوا به : توجيه بولهم ، أو

وضعه داخل النساء ومنحهن أطفالاً ، الخ .

وغيرة النساء من الرجال ذات علاقة بـ « الاستطاعة » التي يبرهنون عليها في الحياة بكل أشكالها ، ومثال ذلك قوتهم الجسمية وقدراتهم الفكرية . فهؤلاء النساء ، اللواتي يغرن من الرجال غيرة حادة ، يبحثن بحثاً مستمراً عن البرهان على أن بوسعهن إنجاز ما يفعله الرجال ويجنين منه إشباعاً . وذلك يعني أن لديهن كل ما لدى الرجال : عضواً أو وظيفة ، وأن لديهن الدماغ أو المهارة اللذين يستخدمهما الرجال لإنجاز بعض الأعمال . وأعتقد أن موضع الغيرة لدى النساء من الرجال هو روح المبادرة والمشروع على وجه الخصوص ، روح تنبني جداً على ثقة بالنفس . ولدى الرجال ، بصورة عامة ، اطمئنان أكثر مما لدى النساء . فالرجل يملك عضواً جنسياً خارجياً يمكنه أن يراه ويعلم أنه يعمل عمله الوظائفي . وليس بوسع النساء أن يكن مطمئنات فيما يخصّ قابلياتهن على نحو واضح جداً . ولهذا السبب ، فإن على البنات أن ينتظرن سنين عديدة . ولن ينلن البرهان المطلق على قابلياتهن الجنسية إلا بعد أن يؤدي الرجل دوره ويولد الطفل . وقيمتهن في نظرهن ، حتى في هذه الحال ، قد تجد نفسها ترتبط ارتباطاً قوياً بكمال أطفالهن ، كمال يلفي نفسه مهدّداً باستمرار .

ولا نفهم غالباً ، حتى الآن ، إلى أي حدّ يحسد الصبيان البنات ، والنساء على وجه الخصوص (أمهم) ، على أثدائهن وحليبهن وعلى ، قبل كل شيء ، تلك القابلية العجيبة التي يمتلكها الجسم الأنثوي لتكوين الأطفال وإنجابهم انطلاقاً من الغذاء ومن ما يعطيهن الرجال . ويميل الصبيان والبنات ، على حدّ سواء ، إلى الاعتقاد بأن أجسامهم لا يمكنها أن تنتج إلا البراز والبول ولا شيء أكثر . فالوظائف المذكّرة والوظائف المؤنثة يمكنها عادة ، إذا عملن معاً ، أن تتجلّى بصورة لاشعورية في معظم الفاعليات العادية للجنسين . والرغبة التي يستشعرها

الرجال في الوظائف الأنثوية تتجلّى صراحة لدى الرسامين والكتّاب ، الذين يشعرون بأنهم ينجبون أعمالهم الأدبية والفنية مثلهم مثل امرأة في حالة المخاض ، في نهاية حمل طويل . والواقع أن الفنانين ، أياً كانت وسيلتهم في التعبير ، يعملون كثيراً وهم يستخدمون الجانب الأنثوي من شخصيتهم . والأمر يجري على هذا النحو لأن الأعمال الفنية تتكوّن وتوجد ، بصورة أساسية ، داخل نفس مبدعها ولا تكاد تكون منوطة بالظروف الخارجية . والصانع الذي يصوغ أشياء خارجية ، أشياء ذات علاقة ضعيفة باستيهامه ، يعبّر ، على العكس ، تعبيراً نموذجياً عن وظيفة أكثر اتصافاً بأنها مذكّرة .

وهذه الرغبات في امتلاك مزايا الجنس الآخر ، بالإضافة إلى المزايا الخاصة ، عنصر مفيد جداً في تكوين الطبع . والواقع أنه ليس بوسعنا اعتبار فرد من الأفراد مكتمل الإنجاز إلا إذا وجد الجانب الثنائي الجنسية أو الجنسي المثلي من شخصيته مخرجاً في شكل مصعّد ، إذ يصبح على هذا النحو مصدر الإنتاج . ولا تصبح السيادة على هذا الحسد متعذّرة ولا يتّخذ الحسد مظهراً مرضياً إلا في الحالة التي ترتبط خلالها ، في الذهن ، تلك الرغبة في الأشياء الجيدة والرغبة في امتلاك أكثر مما لدينا بصفات الجنس الآخر ومزاياه ــ بالنظر إلى أن أي بديل آخر غير مقبول ــ ارتباطاً **حصرياً** . ولا تنمو لدى بعض الأشخاص غيرة عنيفة من الجنس الآخر إلا عندما ، على وجه التقريب ، يصيبهم اليأس ويتخلّون عن الأمل في أن يحصلوا على إشباع وأمن بواسطة وظائف واستعدادات تنتمي إلى جنسهم الخاص . فعندما تنتهي بنت صغيرة إلى أن تخشى ، بصورة لاشعورية ، دوافع التدمير داخل نفسها خشية على نحو من الحدّة بحيث تشك بأنها لن يكون بمقدورها أبداً أن توجد شيئاً سوى المواد الفاسدة والقذرة (كالبراز القذر) ، وعندما تستشعر ، حتى لو كان بمقدورها أن تستولي على دمية رضيع (دون إثمية ودون إساءة إلى أخ ، أو إلى أب وأم ، ودون سرقتهم) ، أن الرضيع يموت

بالتأكيد لأن داخلها محشوّ جداً بالأشياء السيئة ، فهي إذن عندما تستشعر ذلك كله ، تنصرف برعب عن هذا الجانب من الحياة وثمة جانب مذكّر ينمو لديها . إنها تضحي على هذا النحو بصورة عفوية ، على الرغم من أنها لا تضحي بصورة شعورية ، بآمالها ورغباتها الأنثوية ، دون أن تفقد بالضرورة لهذا السبب ذلك المقدار الكبير من الحب المرتبط بتبنّي دور مذكّر . وهي لا تمتنع فحسب عن الأفعال الأنثوية التي تعتقد أنها يمكنها بها أن تؤذي جميع أولئك الذين تحبهم ، ولكنها لا تتزوج أيضاً . وربما ستنذر نفسها للاهتمام بأبويها وإخوتها وأخواتها ولإصلاح أخطائها . ولا بدّ لها مع ذلك أن تجد تعويضاً عن تضحياتها ، وستستمدّ هذا التعويض من غيرتها من الرجال . وللغيرة ، هنا أيضاً ، قيمة سيكولوجية لاشعورية ، ذلك أنها ، بالنسبة لها ، ضرب من الاحتجاج ، وتوقّف لقلقها ، وأمن . وما دامت تعاني هذه العاطفة ، فلن يكون لها طفل أو لن تعرّض نفسها على الإطلاق لهذه المخاطر المرعبة . وهي تبرهن لنفسها على أنها لم تبتغ الإشباعات الأنثوية قط ولم ترغب قط في زوج أمها وأطفال أمها ، وأنها لم تقلّد أيضاً أبويها ، وهما « يصنعان الأطفال » ، مع أطفال آخرين ، وذلك أمر كان سيعني ، في رأيها ، أنها أغوتهم وأفسدتهم ، وحاولت أيضاً أن تحصل على أشياء لم يكن لها حق فيها . وهي تبرهن ، إذ تتبنّى طريقة الذكر في الحياة بالحري — وهي ما ترغب فيه أيضاً في نفسها — ، على أنها لا تشتهي الرجال والأطفال ، وأنها لا تؤذيهم أيضاً ، وأن رغبتها في التملّك لا تقودها إلى أن تختلس من النساء الأخريات حب الرجال . إنها تحتمي على هذا النحو من مخاوفها العظمى . وبوسعها أن تبحث عن إشباع الجانب الآخر من طبيعتها وتستسلم إلى رغبتها في أن تكون رجلاً .

وليست غيرة الرجال من النساء أكثر ندرة ولا أقل عمقاً من غيرة النساء من الرجال ، ولكن الاعتراف بها وفهمها أقل بكثير . وأعتقد أن ذلك ليس ناجماً

فحسب عن الآراء المسبقة للرجال في هذا المجال الشائك ، ولكنه ناجم أيضاً عن طبيعة الأمور . ففيما يتعلّق بالصبي الصغير ، الغيور من ثديي أمه وحليبها ، فإن له عضواً خاصاً يعارضهما به ، إنه عضو الذكر . ولكن أخواته الصغيرات ليس لهن أعضاء ذكر ولا أثداء ، على الرغم من أن الإشباع والتفوق اللذين يستمدّهما من واقع ملكيته عضو ذكر يمكنهما أن يُستخدما لإخفاء رغبته في جسم بوسعه صناعة الأطفال وتغذيتهم وللتعويض عن هذه الرغبة . ولن يكفّ الرجال ، مدى الحياة كله ، عن استخدام هذا التعويض سلاحاً يحميهم من الغيرة من النساء ، وبوسعنا أن نجد فيه عنصراً هاماً من عناصر الدلالة السيكولوجية الكبيرة لعضو الذكر . والسبب الرئيس الذي من أجله تظلّ غيرة الرجال من النساء خفيّة بهذا القدر هو أن هذه الغيرة ذات علاقة على وجه الدقة بـ **داخل** الأجسام النسائية وبالوظائف والسيرورات العجيبة التي تتكوّن ، على نحو سحري على ما يبدو ، داخل النساء (أمهاتهم) لصناعة الأطفال والحليب . وكما أن النساء يحسدن الرجال على روح المبادرة لديهم ، يبدو أيضاً أن الرجال يحسدون النساء بالمقابل على قابليتهن للتجربة السلبية ، وعلى وجه الخصوص قدرتهن على التحمّل والألم . فالعذاب يخفّف الإثمية ، ولهذا السبب فإن الألم الذي يجلب الحياة إلى العالم يشتهيه الرجل بصورة لاشعورية اشتهاء مزدوجاً ..

والرجال لا يمكنهم أن يصبحوا واعين بسهولة ما يكوّن موضوع غيرتهم لأنهم لا يعلمون جيداً جداً ما هو الموضوع موضع التساؤل بالفعل . قيل دائماً عن المرأة إنها كانت لغزاً بالنسبة للرجل ، وكثير من النساء يعانون عاطفة خوف خرافية بعض الشيء من امرأة حبلى . فما يفرضونه أو ما يتخيّلونه فيما يخصّ التجارب الأنثوية عنصر ، بالطبع ، من عناصر حياتهم الاستيهامية التي تنفصل في العادة انفصالاً قوياً جداً عن حياتهم اليومية الواعية . وهم يؤثرون بصورة طبيعية ، في هذه الحياة اليومية ، أن لا يُظهروا سوى الجانب المذكّر منهم بالنظر إلى أنهم

يعرفونه في الوقت الذي يستخدمونه خلاله . وإذا استبعدنا الآراء المسبقة ، فإنه يبدو أن علينا أن نستخدم تقنية خاصة لاكتشاف اللاشعور المذكر قبل أن يكون بوسعنا أن نفوز بدرب يوصلنا إلى منابع هذه الغيرة وفهمها ، غيرة الرجال من النساء التي تظلّ خفيّة في حياة الخيال والاستيهام .

ونصادف لدى الرجال ، في عمل التحليل النفسي ، استيهامات وضروباً من الحصر تلقي ضوءاً قوياً على بعض الأعراف والطقوس البدائية للشعوب غير المتمدّنة . وتبيّن هذه الاستيهامات وضروب الحصر أن أصل هذه الطقوس يكمن جزئياً في الغيرة التي يستشعرها الرجال إزاء النساء . وثمة طقس من هذه الطقوس يكمن في « الكوفاد » الذي يقتضي أن يضطجع رجل ، امرأته في حالة المخاض ، في سرير وأن يُعامل بالضبط كما تعامل امرأته في أثناء مدة الولادة كلها . والحال أن ثمة ، في التحليل ، رغبات واستيهامات تبرز لدى الرجال ، ذات علاقة بالمرور في مرحلة الكوفاد ، أو تبرز لديهم أعراض تقود في الواقع تدريجياً إلى التصرف على نحو مشابه . ويكمن أصل هذه الرغبات والأعراض ، بالنسبة للكثيرين ، في غيرة من نسائهم القادرات على أن يلدن طفلاً حياً ، وذلك سبب يدعو إلى أن يعجبوا بهن إعجاباً شديداً جداً ويُعاملن معاملة الشخصية الهامة . يضاف إلى هذا أننا نتبيّن أيضاً ، عندما تكون الغيرة قوية جداً ، أن الإثمية لدينا وانطباعنا بأننا لا نساوي شيئاً يكونان قويين أيضاً وماثلين في البنية العميقة للغيرة ويحدّدانها جزئياً .. والخشية التي يعانيها رجل من القوة في نزعة التدمير وهمجية التملّك اللتين يبديهما لامرأته وأطفاله (إنه يبديهما في الأصل لأمه ولأطفالها الآخرين) ، تعزّز غيرته من خصوبة امرأته ومن قدرتها ، التي يمكن البرهان عليها بصورة أكثر مباشرة ، على الخلق وإنجاب الأطفال .

عاشراً ــ المنافسة

روح التنافس أو المنافسة على وجه العموم ناشئتان من تفاعل عدة مصادر : غريزة المحافظة على البقاء ، والغريزة الجنسية ، والعدوانية . وهذه السمات ، سمات الطبع ، هي بالطبع سوية ومفيدة إلى حدّ معين ، ونحن نكتشف أن ثمة اتجاهاً انهزامياً خفيّاً في النفس بعمق عندما تكون إحدى الشخصيات مكفوفة جداً بهذا الصدد . ويخشى الفرد ، عندما يقتضي الأمر أن يتعارك مع الآخرين أو أن يحقّق الربح ، من أن ذلك يسبّب ضرراً للآخرين يتعذّر إصلاحه ، وأن يُعاقب بقسوة لأنه جازف بأن ينال منهم . وروح المنافسة يمكنها ، إذا بلغت حدودها القصوى ، أن تكون سبباً لآلام كبيرة تعانيها النفس ؛ وعلى الرغم من أن بوسعها أن تكون سبب نجاحات كبيرة ، فإنها تلوّن العلاقات الإنسانية بمسحة من التقزّز . وخلاصة القول إن روح المنافسة ، في حدود معقولة ، سمة من سمات الطبع الإيجابي . وعلى الرغم من أن « النجاح » يمكنه مع ذلك أن يؤمّن الإشباعات العظيمة المؤقتة ، فإن المرء يتبيّن على الأغلب أنه لا يجلب سلاماً للنفس ولا أمناً . أليس أمراً متواتراً أن يرى المرء شخصيات هامة أو شهيرة لا يتسامحون مع من حولهم إلا مع الناس ذوي القدرات المتوسطة ؟ أليس أمراً مألوفاً أن بعض الرجال الأذكياء والموهوبين بصورة استثنائية يختارون زوجات يتصفن على وجه الخصوص بأنهن باهتات وبسيطات ولا اهتمام لهن ، والعكس بالعكس ؟ وسأضرب مثالاً على المنافسة نصادفه على الغالب ، مثال المغنّية الأولى في الأوبرا التي لا تريد ، مهما كان صوتها جميلاً ، أن تغني إلى جانب مغنية أخرى من المستوى الأول : فبالإضافة إلى الإشباعات المادية والجنسية والمالية التي يؤمّنها لها صوتها ، أصبح **تفوّقه** على أصوات الأخريات وسيلتها الأثيرة لتشعر بأنها محميّة . إنه ضمان ضد الخوف من الشر في نفسها ، ضمان يولّد عاطفة من الوحدة يقف الإنسان أمامها مكتوف اليدين ، وضمان ضد الخوف من الموت . وينجم عن ذلك أن مثل هؤلاء

الأشخاص يحاولون دائماً أن يضعوا أنفسهم في حال من التباين الحادّ مع من هم أدنى منهم حتى لا يفوت الناس أن يعتبروهم جيدين وموضع إعجاب ، وكذلك حتى يكون لديهم الانطباع دائماً أن الآخرين سيئون لا هم . وهذه السمة من الطبع ، على صورة أكثر اعتدالاً ، تنتشر انتشاراً كبيراً جداً : فثمة أشخاص عديدون لا يشعرون بالسعادة والرضى بالفعل إلا مع الذين هم أدنى منهم على نحو من الأنحاء ، وقد يكونون أدنى من الناحية الفكرية أو الاجتماعية ، أو حتى من الناحية الأخلاقية . وهؤلاء الناس الأدنى هم أولئك الذين يحتاجون إليهم بالفعل ويخضعون لهم في الحياة . وأولئك الأشخاص ، الذين يحتاجون إلى أن يتوافقوا مع الأدنى منهم ، هم بالطبع عكس النفّاجين ، ولكن هذين النموذجين من الأفراد يبحثان في الحقيقة عن الشيء نفسه على نحوين مختلفين . فكلا النموذجين يحتاجان إلى الاطمئنان ، وإلى ضمان مفاده أنهما ليسا من الفقراء ، ولا التعساء ، ولا فارغين ، وأنهما جديران بالتقدير والحب .

ومن الواضح أن الخسيس الذي نساكنه ، أو المنافس ، أو أي فرد نستخدمه إناء للأجزاء من أنفسنا التي نعتبرها خطرة ولا نريدها ، يصبح بالفعل في جميع هذه الأوضاع ، التي نستخدم الإسقاط خلالها ونعتبر فيها أن الآخرين سيئون بدلاً من أنفسنا ، ذلك الجزء السيء من أنفسنا بصورة لاشعورية ، و« المثْل » لهذه الجهة التي تنتمي إلينا . وهذه السيرورة تبدو في بعض الأحيان واضحة جداً في المسرح وفي الأدب اللذين تشكّل فيهما مثل هذه التشخيصات مخزون الكاتب . فإياغو ، على سبيل المثال ، يمثّل ميول التملك الخاصة بأوتيلّو ، ميول يُشار إليها أيضاً إشارة بارعة في الدلالة الرمزية اللاشعورية لجلده الأسود .

ويصبح ممكناً ، وقد يحدث أن يبدو ضرورياً ، كلما رأينا الشر في شخص آخر ، أن نحرّر عدوانيتنا المكبوتة التي نكابدها إزاء هذا الشخص . ومن هنا منشأ الدور الذي تؤديه في الحياة إدانة الآخرين ، ويؤديه النقد والتشهير وعدم التسامح

بصورة عامة . فما ليس بوسعنا أن نتسامح به في أنفسنا ، لسنا مستعدّين للتسامح به لدى الآخرين . وبوسعنا أيضاً ، ونحن ندين الآخرين ، أن نجد إشباعاً مضاعفاً ، ناجماً على نحو مباشر عن أننا نتحرّر من ميولنا العدوانية وأننا أيضاً نشعر بالاطمئنان لأننا نمتثل لمعايير ما هو خير وكامل ونراعيها . والسخط الفاضل يمكنه أن يكوّن لذة عدوانية من أكثر اللذات قسوة وضغينة . وهذا التعبير الواسع جداً ، في الحياة المتمدّنة ، من الدوافع العدوانية يمكنه أن يُلاحظ في عدد لامتناه من الأوضاع اليومية . فالهدف من مناقشة من المناقشات هو أن يبرهن المرء على أنه على صواب ، ولكن الهدف الرئيس المباشر على الأغلب يكمن في الواقع في أن يبرهن على أن الآخر على خطأ . والاضطهاد الديني ينبني على هذه الآلية ، وينبني عليها أيضاً هجوم الكاتب الحزبي أو الخطيب الحزبي . وليس الجزء الأكبر من العداوة التي تتجلّى في الحياة العملية أو العمل المخرّب الذي يقع في الجمعيات العلمية ، ناجماً عن آلية أخرى . وقس على المنوال نفسه مهاترات العاشقين والأشخاص المتزوجين . ومن المثير للاهتمام أن نوازن هذا الموقف من عدم التسامح بموقف النموذج من الأشخاص الذي ذكرناه أعلاه ، أشخاص بوسعنا أن نقول عنهم إنهم متسامحون جداً فيما يخص عيوب نظرائهم أو ما ينقصهم من الصفات . وهذان النموذجان من الأشخاص يصلان مع ذلك إلى الهدف نفسه بدروب مختلفة ، بالنظر إلى أن هذا الهدف هو استخدام شكل من أشكال التبعية بغية الحصول على ضرب من تنامي الأمن .

حادي عشر ــ حب السلطة

ثمة اتجاه وجداني ينطوي على عنصر بارز من العدوانية هو حب السلطة أو « الظمأ » إلى السلطة . إنه ذو أهمية سيكولوجية كبيرة جداً ، ولكنه أعقد من أن يكون بوسعنا أن ندرسه هنا دراسة مفصّلة . ونقول بصورة إجمالية إنه ناجم عن

محاولة مفادها أن يراقب المرء تلك الأخطار التي يستشعرها في نفسه على نحو أكثر مباشرة من مراقبتها بطريقتي الإسقاط والهروب . إنها دائماً تلك السمة التي **تتعذّر مقاومتها** ، سمة رغباتنا وعدوانيتنا ، وكذلك **عجزنا** إزاء هذه الدوافع التي نخشاها أكثر ما نخشى . وثمة وسيلة لنيل الأمن تكمن في أن نصل إلى سلطة كلية القدرة هدفها السيادة على جميع الظروف التي يُحتمل أن يكمن فيها الألم وفي أن نصل إلى جميع الأشياء المفيدة والمرغوبة داخل أنفسنا وخارجها معاً . والقدرة الكلية ، في الاستيهام ، ينبغي لها أن تؤمّن الأمن . ومظاهر محاولاتنا صوب القدرة الكلية كثيرة ، وثمة درجة معيّنة من القدرة الكلية موجودة في جميع الأشكال الأخرى ، التي وصفتها ، من العدوانية ، وفي الدفاعات أيضاً ضد أخطار التبعية والدمار . وليست السلطة عدوانية بالضرورة ولو أنها تُمارس بصورة غير مباشرة ، ولكنها ذات نزعة قوية إلى أن تصبح عدوانيـة . وثمة شكـل من أشكال القدرة الكلية بوصفه وسيلة لنيل الأمن يكمن في أن نجرّب الخطر على وجه التقريب حتى نختبر قدرتنا على الهروب منه . والخطر النهائي الذي يخشاه هؤلاء الأشخاص هو في الواقع تلك العقوبة والاضطهـاد اللذين يتوقّعونهمـا بصورة لاشعورية من جميع الموجودات المحبوبة أو المكروهة التي أضرّت بها رغبتهم في التملّك ضرراً إما في الفكر وإما في الواقع . وقد يحدث بالطبع أن يصبح الأفراد ذوي الظمأ المغالي إلى السلطة أشخاصاً ديكتاتوريين . وثمة بديل آخر يكمن في أن يصبحوا مجرمين وقطّاع طرق وسائقين رعناء ، إلخ . إنهم يقضون حياتهم في أن يختبروا إن كان بوسعهم أن يفلتوا من العقاب الذي تمثّله الحوادث والسجن على سبيل المثال ، بل والأشغال الشاقة .

ومن الطبيعي وجود إمكان مفاده أن يشهد المرء انبعاث طغاة وسط أخطار ضرب من الجمود الاقتصادي الذي يثير انفجاراً وتدميراً . وعندما يمرّ طاغية من الطغاة مروراً وحشياً على أجسام أناس أكثر وداعة منه وأكثر خجلاً ، فإن بوسعه أن يحاول البرهان على أنه قادر على أن يكون أقوى من خطر كارثة اقتصـادية

وسيأمل أن يجسّد منقذ الوضع . يضاف إلى ذلك أن البدء بحرب في بلد (ربما كان بعيداً) وتغيير الاتجاه لقوى التدمير على هذا النحو أو تحديد مواقعها إجراء دفاعي من إجراءات القدرة الكلية نموذجي تماماً .

وقد تكون هناك أيضاً محاولات للسيادة ذات القدرة الكلية بواسطة الحب . فبعض القادة الدينيين قد يكونون مؤيدين لهذه الفكرة . وسلطة الحب تختلف مع ذلك اختلافاً أساسياً عن حب السلطة ، الأناني بصورة أساسية ، الذي لا يمكنه أن يمتزج مع الحب إلى أي درجة من الدرجات . فالحب الحقيقي يفترض استعداداً للتضحية ، واحتمال الألم ، ودرجة من التبعية (ويفترض كل الأشياء الإيجابية من وجهة نظر الحب) . والحاجة إلى السلطة تستمدّ مصدرها مباشرة من عجز عن احتمال التضحية من أجل الآخرين أو التبعية للآخرين . وبسبب هذا العجز الكامن ، فإن كل محاولة لبلوغ هدف بنّاء في الظاهر ، بوسيلة القدرة الكلية المفرطة ، محاولة خاطئة دائماً ــ تستند إلى محاكمة خاطئة . وإذا نجحت (إن كان ذلك « نجاحاً ») ، فإن هذا النجاح لا يتمّ إلا بالغش أو بالعنف .

ويتعذّر عليّ أن أدرس هنا عدداً معيّناً من المظاهر الهامة لموضوعي ، كهذه التعبيرات الماكرة وغير المباشرة عن الكره والعدوانية ، تعبيرات هي الخيانة ، والمراءاة ، والتدليس ، والكذب ، إلخ . والأمر على المنوال نفسه فيما يخصّ التعبيرات المجاورة كالبخل ، ورفض الحب أو الاستمرار في الحب ، ورفض المرء أن يكون كريماً[1] .

---

(١) ــ إغفال هذه التعبيرات المجاورة لا يبتغي على الإطلاق أن نعتبرها مظاهر ذات أهمية ثانوية . إنها في الواقع أشكال عدوانية غير معروفة أو غير مفهومة وتقدير أهميتها أقل من الحقيقة بكثير . ولكنني مرغم على أن أقتصر ، في هذه الدراسة القصيرة ، على أن أدرس التعبيرات الظاهرة من العدوانية ، وعلى أشكالها الأكثر بساطة وألفة .

ثاني عشر ــ الغيرة في الحب

الغيرة ليست على الإطلاق استجابة بسيطة بالقدر الذي نفترض ، على الرغم من أننا نعتبرها « طبيعية » جداً . إن المرء يستشعرها حقاً على الغالب ، حتى ولو لم تكن الظروف تسوّغها في الواقع . والوضع النموذجي للغيرة هو بالطبع وضع المنافسة في الحب . وأنتم تتوقّعون مني أن أرجع هنا إلى عقدة أوديب وأن أقول إن كل غيرة ناجمةٌ عن هذه التجربة الأولى من المنافسة الجنسية في الطفولة . أنتم على صواب . ولكن هذا الشرح غير كاف . ومن الطبيعي أننا لا نكفّ عن أننا نكرّر على وجه التقريب تجارب طفولتنا ، ولكن الأفراد يختلفون في هذا المجال ، أي أننا لا نكرّر تجارب طفولتنا لمجرد اللذة في تكرارها ، إذا تجرّأت على التعبير على هذا النحو . وعندما نفعل ذلك ، فإن السبب نفسه هو الذي يجعلنا نتصرف كما كنا نفعل المرة الأولى ، ولأننا لمّا نجد طريقة أفضل في التصرف على الرغم من أننا أكبر سناً .

وبقدر ما تكون الغيرة استجابة كره وعدوانية لخسارة أو لتهديد بالخسارة ، فهي بسيطة جداً ، وبدائية ، ولا مفرّ منها أيضاً كأي استجابة من هذا النسق . وثمة عنصر خاص بالغيرة هو مع ذلك الذلّ الذي يرافقها بصورة ثابتة ، بالنظر إلى الجرح الذي يسبّبه للثقة بالذات ولعاطفة الأمن . وخسارة الثقة بالذات لا يحسّ بها الشخص الغيور على نحو شعوري دائماً . وإذا فكرتم بالأمر ، فإنه يتبيّن لكم أن الغيور يشعر بأنه أقل ذلاً بقدر ما يشعر بأنه أكثر غضباً وعدوانية . وهو ، على العكس ، أكثر تعاسة واكتئاباً بقدر ما يشعر أنه أقل عدوانية وأقل غضباً . ويشعر الغيور حتماً بالذل والدونية ؛ ويشعر ، دون وعي كبير ، بأنه محتقر ، ومكتئب ، وآثم . وشرحُ ذلك أنه إذا لم يكن محبوباً أو إذا اعتقد أنـه غير محبوب ، فإن الدلالة اللاشعورية لهذه الحالة هي أنه **ليس بوسع النـاس أن يحبوه** ، وأنه بغيض ، وأن

الكره كامن فيه . وهو يعاني ، معاناة شعورية أو لاشعورية ، ذلك الانطباع الذي مفاده أن السبب في أن الشخص المحبوب تخلّى عنه أو نسيه يكمن في أنه هو لم يكن طيّباً بما فيه الكفاية معه . وهذه الفكرة ، فكرة أنه غير محبوب ، توقظ في نفسه (مع كل المخاوف من الوحدة ، مخاوف ترافق هذه الفكرة) اكتئاباً وشعوراً بأنه معرّض إلى خطر دون القدرة على الدفاع عن نفسه ، اكتئاباً وشعوراً لا يحتملان . وذلك يشرح حدّة الغيرة ومرارتها المعذّبة ، وتلك حالة نحاول جميعنا أن نخفّف من حدّتها إذ نوجّه الإدانة إلى شخص من الأشخاص ونكرهه ، أي المنافس في هذه الحال . وينبعث من الطفولة الأبعد انبعاثاً جديداً تحقّق حالة التبعية بكل مخاطرها وتبدأ الدائرة مجدّداً في الانغلاق كما كان الأمر في الماضي البعيد . فيوضع الإسقاط مباشرة موضع العمل . ونرى الشر ونزعة التدمير لدى المنافس ، فندينه وبوسعنا أن نفرغ عليه شحنة كرهنا دون أن نعاني الإثمية .

ولدينا الحاجة في الطفولة إلى أن نسقط خارج أنفسنا ، على شخص آخر ، حالات غضبنا الخطرة وإلى أن نجعلها تتوحّد بهذا الشخص ، إذ نتوحّد نحن بحالة من الهناء . ومن المحتمل أن تكوّن هذه الحاجة أحد المحرّضات الرئيسة على الاعتراف بوجود أشخاص آخرين . فكل اهتمامنا الذي ينصبّ على العالم الخارجي والأشخاص الآخرين ينبني في نهاية المطاف ، بعبارة أخرى ، على حاجتنا إليهم . ونحن نحتاجهم لسببين ، السبب الأول : يكمن بصورة واضحة في أن نحصل منهم على حاجاتنا إلى المحافظة على البقاء وإلى اللذة معاً ؛ والسبب الثاني ، نكرههم حتى يكون بوسعنا أن نطرد خارج أنفسنا ماهو سيء وخطر فينا وأن نفرغه عليهم . وأعتقد أن هذا هو السبب الذي من أجله نستشعر الغيرة على الأغلب في حين أنها غير مبرَّرة . وعندما يعاني أحدهم — على نحو لاشعوري — عاطفة مفادها غياب الحب والطيبة لديه ويخشى أن يكون الشريك في الحب قد اكتشف هذا الغياب أو أن غياب الحب يسبّب له أذى ، فإنه يبدأ عندئذ بأن

يكون غيوراً وأن **يبحث** لدى الآخر عن غياب الحب حتى لا يرى هذا العيب في نفسه فقط ، وحتى يرى الأذى لدى منافس من المنافسين بدلاً من أن يراه في نفسه .

وسنلاحظ أن هذا الاتهام « **أنت لا تحبني** » يضغط على جميع خصومات العاشقين وعلى الخلافات التي يعرفها بعض المتزوجين الشباب قبل أن « يتعقّلوا » كما كان يقول جيل الشيوخ . فالشعور بالتعاسة والإثم ، والتكفير في الندم والبكاء ، والتبرئة في الغفران النهائي ، كل ذلك يبرهن برهاناً واضحاً على أن ثمة عاطفة لاشعورية أن المرء غير محبوب ، ولا يساوي شيئاً ، هي التي تشغّل هذه السيرورة من الخصام .

وأخيراً ، لا يستجيب الرجل الذي فقد المرأة التي يحبها ، أو الذي يعتقد أنه سيفقدها ، لخسارة الحب الذي تحمله له أو حرمانه من ملكيتها فحسب ، بل إن هذا الحب وهذه الملكية هما ، في ناظريه ، برهانان على قيمته الخاصة ، وخسارتُهما ، بوصفهما كذلك ، يهدّد أمنه الشخصي في عالمه النفسي إن لم نتكلم على العالم الخارجي . فقيمته ، بالنسبة له ، قد ترمز إليها القوة ، والذكاء ، واستطاعة جنسية ، وفضائل أخلاقية ، وثروات ــ وكل شيء من كثير من رموز الأشياء الجيدة التي تختلف وفق كل فرد ولكنها التي تمثّل في كل حالة تلك الضمانات التي يختارها فرد من الأفراد . وهذه الضمانات تعمل بوصفها مصادر داخلية توازن أخطار القوى السيئة في نفسه وتحميه من هذه القوى . ومعظم الناس يعانون ، في الزواج على وجه الخصوص ، وهو مؤسسة تنطوي على مسؤوليات والتزامات متبادلة ، انطباعاً مفاده أن الشريك الجنسي يعترف ــ إذن يبرهن ــ بهذا الرجحان ، رجحان الجيد على السيء ، وهو الجيد الذي نبحث عنه جميعنا وسلام أنفسنا منوط به .

وقد يكون مثيراً للاهتمام أن ندرس الزواج المتمدّن انطلاقاً من وجهة النظر هذه . فإلى أي حدّ من الحدود تؤدّي هذه الحاجة إلى الاطمئنان فيما يخصّ قيمة الفرد الخاصة ، إذا قارناها بالحب أو الرغبة الجنسية ، دوراً ذا أهمية في قرارات الزواج لدى الرجال والنساء ؟ قد يكون عسيراً تقدير هذه الدافعيات المختلفة لدى الأفراد الأكثر سواء إلا إذا أخضعناهم للتحليل النفسي . والواقع أن ما نسميه الحب الحقيقي هو على وجه الضبط حالة يمتزج فيها هذا العاملان ، الحب والرغبة الجنسية ، ولا يشكّلان سوى عامل واحد ، حالة ينجم اليسر والسعادة فيها بصورة مستمرّة عن واقع مفاده كمال الحب ، لدى الرجل والمرأة ، الذي يمكنه أن يشبع الرغبات المتبادلة ويرضيها . والحب المتبادل يكوّن ضماناً مضاعفاً بالنسبة لكل شريك من الشريكين . فحب الآخر ، إذا انضاف إلى حب الفرد نفسَه ، يضاعف احتياطيات الحب والهناء ، ويضاعف إذن احتياطيات الضمان ضد الألم ونزعة التدمير والتعاسة الداخلية . يضاف إلى ذلك أن كل شريك من الشريكين يجدّد الرغبة الجنسية لدى الآخر بفعل ما يؤمّنه من إشباع للحاجات الجنسية ؛ وهذه الرغبة الجنسية ، وهي ألم كامن ومصدر نزعة التدمير ، تصبح لذة مطلقة ومصدر الهناء . وهكذا ينال الفرد ، برابطة الحب ، من جهة ، إشباع غريزتي الحياة (غريزة المحافظة على البقاء والغريزة الجنسية) اللتين تميلان إلى الانسجام والوحدة ، وينال من جهة ثانية تنامياً في الأمن بالنسبة لغرائز التدمير والأخطار التي تمثّل العزلة والخسارة والعجز . فحالة اللذة ينالها الفرد مع الحدّ الأدنى من الحرمان والعدوانية في حين أن **مزايا التبعية** مستخدمة إلى الحدّ الأقصى . وينبغي مع ذلك ، حتى ولو كان الأمر على هذا النحو ، أن تكون اللذة التي تنجم عن هذه المظاهر ، مظاهر العدوانية ، البنّاءة ودون أن يكتنفها الخطر ، حاصلة في جهة من الجهات إلى درجة كافية . وعندما تصبح آلية الإسقاط خطيرة جداً ، ويصبح الحصر وانعدام الثقة بالآخرين ، اللذان ينجمان عنها ، حادين جداً ، فإن

التبعية في الزواج تتيح المجال لضروب من الإفراط في الخوف والكره ستهدم كل إمكان لحالة من لذة الحب وتُدخل الإحباط والتفكّك في الدارة المفرغة للرغبة في التملك .

ثالث عشر ــ الوجدان ، الأخلاق والحب

يبدو أنني تكلمت قليلاً جداً على الإثمية ولم أكد أثير هذين الموضوعين اللذين يتصفان بالأهمية : كره المرء ذاته والعدوانية الموجّهين ضد الذات في معارك داخلية مؤلمة . فثمة جزء كبير من نزعتنا العدوانية محفوظ ومكثّف في هذا الجزء أو هذه الوظيفة من الذات ، التي نسميها الأنا العليا[1] في علم النفس الحديث . وتسوس الأنا العليا (المبادىء والمعايير التي تعمل داخلنا) بصورة لاشعورية جزءاً كبيراً من سلوكنا ، وتعامل شخصيتنا على الغالب بقسوة كبيرة . وفي حدود ما ندرك هذا الجزء من ذاتنا وتأثيره علينا ، فإننا نسميه الوجدان . وأحد الأسباب التي من أجلها تظلّ هذه الوظيفة خارج الشعور بالنسبة للكثيرين هو أن ثمة دوافع في أنفسنا تدفعنا إلى أن نقمع ونجهل جانباً من أنفسنا يمكنه أن يؤلم ، ويحاول أيضاً أن يتداخل مع عدد كبير من الإشباعات .

وسعيت إلى أن أبيّن أننا نقضي حياتنا في محاولة مفادها أن نحتفظ بضرب من التوازن بين عناصر شخصيتنا التي تؤمّن الحياة وبين عناصر التدمير . والواقع أن الوجدان ليس سوى تحقيق الضرورة اللاشعورية لتأمين هذا التوازن . فما يرسمه الوجدان ، في أعمق أعماق أنفسنا وخلف بعض التناقضات الظاهرية ، يوحيه

---

(١) ــ ليتفضّل القارىء بالرجوع إلى أعمال سيغموند فرويد لدراسة هذا المفهوم في التحليل النفسي : **الأنا والهو** ، **علم النفس الجماعي** ، وإلى المقالين التاليين : « النرجسية » و« الحداد والسوداوية » إلخ .

دائماً مبدأ مراقبة الدوافع التي تنزع إلى التدمير . وثمة سبب من أجله تجعلنا الدوافع الجنسية نعاني عاطفة عنيفةمن الإثمية يكمن في أن لها ميلاً إلى أن تكون ملحّة بهذا القدر ، أي أنها عدوانيـة وأنانية إلى حدّ يمكنها أن تسبّب لنا الأذى وللآخرين أيضاً[1] . والوجدان ، كما نعرفه ، لا يمتثل إلا إلى الانضباط : فعل ما هو منتج والإحجام عن فعل ما يدمّر . وليس ذلك سوى تعبير آخر عن سيادة الذات التي تحسن الاحتفاظ بتوازن عادل بين الأنانية والغيرية ، بين الحب والكره .

وثمة ، منذ أزمنة عريقة في القدم ، مؤسّسة أقامتها الإنسانية بوصفها عوناً للسيادة على الكره والأنانية . وأقصد أن أتكلم على الدين ــ على الرغم من أن تعبيراته المختلفة لم تؤد هذه المهمة على نحوٍ مناسب . والرغبة في ما هو جيد كان يوقظ في أنفسنا ، في الأصل (في طفولتنا الأولى) ، الحسد والعدوانية كما يوقظ الحب والحنـان . وهذا الارتبـاط كان لا يزال في الديانة ، بأشكـالها البدائيـة ، واضحاً . فما هو جيد : الإله ، كان يُقتل ويؤكل كما كان ممجّداً ومعبوداً . وكان ثمة عدة حركات دينية ، قبل العهد المسيحي ، تبتغي أن تفصل هذين الاتجاهين . وإحدى هذه الحركات ولّدت المسيحية التي كانت تكوّن ، وقد أصبحت إحدى الديانات الكبرى في العالم ، محاولة سامية إلى حدّ كبير للفصل بين الحب وكل ما هو عدوانية وحسد . وكانت تحاول أن تصل إلى ذلك بتمجيد الحب الغيري حتى المثال ، ولكنها تنفي في الوقت نفسه واقع العديد من مشكلات النفس الإنسانية وسيكولوجيـا الإنسـان . وكانت دوافع الإنسـان العدوانية والجنسية ، عندما لا

(١) ــ إن علاقة جنسية منجزة بغية إنجاب طفل ، أعني بغية توليد الحياة ، مسوّغة ، في رأي بعضهم ، أكثر من أي علاقة أخرى . والسبب يكمن في أن القصد الواعي الذي يرتبط بهذه العلاقة يهدّىء الوجدان ويخفّف وطأة الإثمية ، هذه الإثمية التي لها علاقة بالعدوانية في الجنسية . والسبب الأعمق الذي من أجله تكون الجنسية ملوّثة بالإثمية يكمن في أن أولى رغباتنا الجنسية الأولى كانت في الواقع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدوافع الكره والعدوانية .

يكون وجودها منفيّاً كل النفي ، محتقرة ومدانة أو ليس لها أي اعتبار . و هذا الإنكار غير خاص بالمسيحية ، وأفضل الذين كانوا لسان حالها لم يقبلوا به . إنه كان ، ولا يزال ، ميلاً عاماً لدى الإنســان إلى أن ينفي ويجهل ما يخشاه في نفسه[1] . ومع ذلك ، تبنّت المسيحية هذا الميل وأبانته على وجه الخصوص بشتى الطرق ، وذلك أمر ترتّب عليه تشجيع هذا الميل والمحافظة عليه .

والحقيقة مع ذلك أن العدوانية والجنسية ، وهما جزءان لا يتجزءان من الطبيعة الإنســانية ، لا يمكنهما إلا أن يتجلّيا ، بجوانبهما الفضلى أو الأسوأ ، ما دامت الحياة . وعندما نسعى إلى أن ننكر حقوقهما ونستبعدهما نهائياً من المشاركة في الحيـاة ، فإنه لا بدّ لهما عندئذ من أن تتسرّبا في دروب الكره ونزعة التدمير . وهما ، بأشكال كالاضطهاد ، والشراهة ، والتقشّف ، والنفاق ـــ أشكال ترافق بصورة محتومة مثل هذا الانفصال ـــ تشقّان دربهما عنوة في الحياة الدينية وتعذّبان حياة الناس . وبما أن المسيحية ، بالإضافة إلى ذلك ، كانت تقصر كثيراً ما هو جيـد على اتجاه غيري في الانفعـالات **وفي الفكر** ، وتنفي أهميـة العـالم المـادي الخـارجي ، فـإنه كان لا بدّ للعدوانيـة ، التي كانت المسيحيـة تنكرها ، من أن تجد مخرجاً **شخصياً** يكمن على سبيل المثال في حماسـة التبشير بالدين واضطهاد معتقدات الناس ، واضطهاد الناس أنفسهم في نهاية المطاف . والعدوانية لم يكن لها الفرصة لتعبّر عن نفسها في المظاهر اللاشخصية التي توفّرها المخارج البنّاءة الكبيرة لها ، سـواء في المجال الفكري أو في مشـروعات إيجابيـة تطمح إلى دراسـة الطبيعة ، كالاكتشاف أو التجريب . وكانت هذه المجالات ، مجالات الجهد المادي ، تُعتبر أنها غير ذات قيمة ومفصولة على هذا النحو عن ما هو جيّد . والاكتشافات الهامة

---

(١) ـــ ذكرت هذه الطريقة ، طريقة الإنكار ، على نحو واضح في فقرة « العدوانية » ، وعلى نحو ضمني في كثير من الفقرات الأخرى .

التي تمّت قبل العهد المسيحي في المعرفة اللاشخصية : الفيزياء ، وعلم الفلك ، والرياضيات ، والفيزيولوجيا ، إلخ ، كانت قد جمّدتها هذه اللامبالاة بالعالم الفيزيائي (الحي أو غير الحي) وبقوانينه ، وجمّدها رفض الإنسان أيضاً أن يمارس عدوانيته على نحو بنّاء(١) .

والعدوانية **المفصولة** والمستبعدة عن انصهارها واقترانها بالحب لا تنتهي فقط إلى أن تفرغ شحنتها بأشكال قصوى من نزعة التدمير ، بل ثمّة جانب آخر من الوضع الذي ينجم بصورة نوعية عن **نفيها** . فلولا العدوانية المفيدة للإنسان في الحصول على وسائل عيشه ، ولولا الجنسية التي تهدف إلى المحافظة على النوع ، لكفّ الإنسان عن أن يكون موجوداً . إنه لنقيض الحقيقة ، من وجهة النظر الموضوعية ، أن ننفي أو نعيب ضرورة ما هو أساسي للحياة بهذا القدر ، وقيمته . إنه لباطل أيضاً أن ننفي أو نعيب ضرورة اللذة التي يستمدّها الإنسان من العمل الوظائفي لجسمه وغرائزه الجنسية والعدوانية ، وقيمة هذه اللذة . فالحياة تصبح ، دون إشباع غريزي كافٍ ، فاقدة القيمة بالنسبة للإنسان الذي يرتدّ إلى الخمود والعطالة . ولهذا السبب ، يكوّن نفي الوجود لهذه الغرائز لدى الإنسان ونفي قيمتها وهماً وبالتالي أساساً خاطئاً يبني حياته انطلاقاً منه . وجميع الجهود التي تبذل لدعم هذا الأساس الوهمي وتأكيده لا تنفكّ تفاقم الخديعة تجاه الذات . فمحاولات جعل العدوانية متّفقة مع الواقع ، والتعامل معها على قاعدة النفي ، سرعان ما يستدعيان التستّر الفاعل والكذب لدعم هذا الأساس ضد قوة

---

(١) ــ التغيرات في الوجدان الاجتماعي التي أذكرها هنا باختصار ، وفي الأفكار ، واهتمامات الناس في مختلف العصور ، وطريقتهم في النظر إلى العالم ، تجد ، بحسب الكتاب الذي أدين له بانطباعات جديدة وصحيحة ، إبانة ساطعة في اللغة . والمقصود هو المؤلّف المعنون : **اللغة الانغليزية** (وعلى وجه الخصوص الفصل التاسع) لمؤلفه ل . بيرسل سميث . مكتبة الجامعة الوطنية .

الحقيقة . ومثال ذلك أن الغرور ، واغتياب الناس ، والمراءاة ــ التي تكوّن بعض الأشكال غير المباشرة والماكرة للعدوانية ــ تلغم الجانب البنّاء من فصل العدوانية عن الحب وتحطّ من شأنه ، أي قيمة الحب الغيري . ويستقرّ الحصر والشك أو الصلافة ، وبالتالي يتعرّض الإيمان أيضاً بما هو جيد إلى خطر الضياع .

وعند هذه النقطة من التطور التاريخي إنما كان بإمكان خيبة أمل خطيرة أن تتجلّى ، خيبة أمل يرافقها ضرب أقصى من انعدام الأمن ، والاكتئاب ، والعجز ، لو لم تكن استجابة تدريجية قد تدخّلت ، استجابة ربما بلغت ذروتها الآن (وهذا هو البرهان على السمة البنّاءة جداً لكثير من جوانب الديانة المسحية أنها كانت قادرة خلال زمن أن تمتصّ جزءاً كبيراً من هذه الاستجابة وأن تستمرّ حيّة بعدها) . فالرغبة في إنقاذ ما هو جيد والحاجة إلى صراحة كبرى شقّتا ضرباً من الدرب عنوةً . وحدث التطور في اتجاه اهتمام بالعالم **الخارجي وبحث عن الحقيقي والجيد في الأشياء المادية** . وفي عصر النهضة إنما تجلّى هذا الاتجاه مجدّداً ، عندما اكتُشفت اكتشافاً جديداً بعض مراكز الاهتمام السابقة على عهد المسيحية . فتحرّرت العدوانية من أغلالها وأصبحت مجدّداً جاهزة من أجل العلم واكتشاف الطبيعة . وأصبح الواقع المادي[1] ، بالتقابل مع الاهتمام المعلن بالحياة الوجدانية ، ذا قيمة لها أهميتها ، وفُهم العالم فهماً أفضل واستخدم استخداماً أفضل ــ ومن هنا منشأ رخاء أكبر . ويبدو مع ذلك أننا نقترب الآن من نقطة سيحتلّ فيها الرفاه الخارجي (الرخاء والأرباح المادية) ، بوصفه مثالاً ، محلّ الهناء الداخلي . ويساهم الرخاء كثيراً ، على النحو الذي نعلم ، في نيل هناء داخلي ،

---

(١) ــ إنه لأمر لا مفرّ منه أن العلم عُني أول الأمر بالمجال الأسهل في بحوثه ، مجال وقائع العالم الخارجي التي تقبل التحقيق والحساب على نحو أسرع من وقائع العالم الداخلي لنفس الإنسان (الواقع النفسي) . واكتشاف تقنية التحليل النفسي جعلت مع ذلك هذه المهمة الثانية أكثر سهولة بكثير .

وذلك أمر لا يعني أن يكون وسيلة بلوغه . وليس الرخاء كذلك بديل الهناء الداخلي . فإذا أصبح الربح المادي مثالاً ، فإن الحياة الداخلية تكون ، لهذا السبب ، منفيّة على نحو كبير وقد تنتهي إلى أن تكون محتقرة . وعاقبة هذه الاستجابة تكمن في أنه يحدث الآن ضرب **من الفصل والنفي الكبيرين للدور الذي تؤديه في الحياة حاجاتنا الوجدانية الداخلية** . فحاجتنا إلى الحب الذي يكوّن أمننا الأكبر ضد الحصر الداخلي ذي العلاقة بالكره ونزعة التدمير ، ومشكلات الإثمية التي لا تنفصل عن الحب ، ومعايير الوجدان والأخلاق ، الناجمة عن إثميتنا ، كل ذلك مهمل ومنفيّ وقد ينقرض من الجوع بدوره ، على الرغم من أن الرخاء المادي يزداد .

والرخاء ، بوصفه مثالاً ، أمر مشخّص ومحدّد . وبوسعنا ، حين نبلغه ، أن نختبر نجاحنا وأن يكون لدينا البرهان عليه . ومثال ضرب من الهناء الداخلي هدف أبعد بكثير . فقدرتنا على الحب داخلية لا يمكنها أن تبرهن على نفسها لنا . والرغبة في التملّك والكره عنيفان في أنفسنا . أما الإيمان بقدرتنا على الحب فإنه ، على العكس ، لا يحصل بسهولة . ومن اليسير أن نسخر من الحب ونخنقه ، ولكن من المتعذّر أن نقيّمه كما نقيم حساباً مصرفياً . والمرء يمكنه بسهولة أن يكون مخدوعاً ويعتبر حباً ما لا يكون في الواقع حباً . فالوهم والغرور غير المسوَّغ يُقدّمان بديل البحث عن الهناء الداخلي . وإذا كان الوجدان والأخلاق فينا ليسا على علاقة بحبنا، فإنهما يصبحان وسيلتي نقل لكرهنا . وإذا كانا مخدوعين ، فإنهما يخدعاننا بدورهما ويمكنهما على هذا النحو ، على سبيل المثال ، أن يضلاّنا في بحث مفيد عن الرذيلة ، بحث يتصف جزئياً ، في الواقع ، بأنه دفاع ضد الوهم . ولكن الشفاء من الوهم غير موجود بالنظر إلى أننا نجد الشر لدى الآخرين على نحو أسهل من أن نجده في أنفسنا . فكل هذه الأخطار وكل هذه الصعوبات تميل إلى أن تجعلنا ننصرف عن مشكلات الهناء الداخلي خوفاً من الخديعة وخوفاً من العجز وانعدام

الأمن اللذين يهدّداننا .

وهذا هو السبب الذي من أجله نتشبّث بالإشباعات الخارجية في حين نهمل المعركة الأصعب في سبيل الثروات الداخلية وسلام النفس . ومن المعروف جيداً أن مشكلات الوجدان لم تعد تلائم ذوق العصر وأن للأخلاق في أيامنا هذه موطناً محلياً صغيراً . فمعاركنا السيكولوجية الداخلية ــ بين حبنا وكرهنا ــ لا تلقى من وجدان يقظ إلا عوناً ضعيفاً . صحيح أن حاجتنا الداخلية الكبيرة إلى تشجيع الحب وتغذيته ، إلى أن نعطيه ونتلقّاه ، إلى أن نقمع الكره ونحوّله ونعدّله ، تبحث عن مخارج خارجية جديدة . ولكن هذه الحاجة ، بوصفها مشكلاً داخلياً لدى كلّ منا ، لا تحظى إلا على دعم مباشر قليل الأهمية . ومن الممكن أن يكون هذا العصر من « النزعة الواقعية » قد سجّل تفوّقاً في بحثه عن هناء حقيقي وفي خشيته من أن يكون مخدوعاً . فالواقع موجود داخلنا بقدر ما هو موجود خارجنا . وليس ثمة وجود لواقع شراستنا ورغبتنا في التملّك فحسب ، ولكن ثمة أيضاً وجوداً لواقع قمع حاجتنا إلى الحب ، واقع لا نعترف به صادقين . وثمة جزء من الدعم الذي نحتاج إليه من أجل الصدق والهناء داخل أنفسنا (وهما عنصران من الواقع الوجداني الداخلي وهما مصدر أمن وجداني مستقرّ) ينبغي أن يكون جاهزاً في العلوم النفسية[1] خلال زمن قريب . والوضع السيكولوجي هو ما هو عليه بحيث أن دوافع الحب لدينا محتقرة ومقموعة . فليس لها دعم أو مخارج كافية ولا يمكنها إذن أن تعمل بكل ثقلها في التفاعل المتبادل بين الحب والكره . ويترتّب على ذلك أن الدارة المفرغة للعدوانية والعنف الانفجاري تتعزّز .. بل من الممكن أن تنتهي الحضارة الغربية ، التي تدين لسلطة الحب بالكثير ، إلى الدمار .

(١) ــ يبدو في الواقع أن ثمة كثيراً من رجال الدين والمتصوفين ، ولكن لا الكنيسة نفسها ، ناضلوا لبلوغ هذا الهدف . فالفهم العلمي لحياة الإنسان الوجدانية ، فهم نكتسبه بالتحليل النفسي ، يفتح الدرب للفرد صوب حلّ المشكلات هذه ، وصوب سلام النفس بالتالي .

ولا أريد أن أقول إن الحياة ذاتها تهدّدها بالموت قوى التدمير لدى الإنسان ، ولكنني أريد أن أقول إن الحضارة تبدو في هذه المرحلة مهدّدة بالتفكك نظراً إلى أن الحب ، مع سلطة التوحيد التي يتصف بها ، سلبي وتنهكه العدوانية .

هذه الدراسة لأهمية الكره ، معزولة بصورة مصطنعة عن سياق الحياة الوجدانية ، لا يمكنها أن تكون ــ وعليكم أن تتذكروا ذلك ــ إلا دراسة إجمالية ولا يمكنها أن تقدّم صورة للحياة بوصفها كذلك . وآمل أن لا تبين دراستي أنها تسبّب الاكتئاب . وإنه لأمر بالغ الأهمية أن يكون هذا الجانب من الحياة مفهوماً على نحو أفضل . فعندما نصبح قادرين على أن نقبل في وقت واحد حتمية هذه الآليات الداخلية وأهميتها الكامنة ، فإن العنصر العتيق من خوفنا إزاءها يضعف ، واستجاباتنا يمكنها أن تكون مسودة . وبوسعنا عندئذ أن نجد وسائل تتيح لهذه القوى الطبيعية أن تنفلت جزئياً من أجل استخدام بنّاء بقدر ما هو ممكن . وذلك لا يمكنه أن يحدث إلا بالفهم الذي ينجم هو ذاته ، بالنسبة للكثيرين ، عن التسامح ، وبعبارة أخرى عن الخيال ، والتعاطف ، والحب .

الفصل الثاني

الحب ، والاثمية ، والحاجة إلى التعويض

بقلم : ميلاني كلاين

الحب والإثمية والحاجة إلى التعويض

ثمة جوانب مختلفة جداً من الانفعالات التي يعانيها الانسان مدروسة في جزأي هذا الكتاب . فالجزء الأول ، « الكره ، والرغبة في التملّك ، والعدوانية » ، يحلّل دوافع الكره القوية ، وهي عنصر أساسي في الطبيعة الإنسانية . والجزء الثاني ، الذي سأحاول أن أصف فيه قوى الحب ، القوية أيضاً ، والحاجة إلى التعويض ، يكمل الجزء الأول ، ذلك أن التقسيم الظاهري الذي ينطوي عليه هذا النمط من العرض غير موجود في النفس الإنسانية بصورة واقعية . وربما لا يكون بوسعنا ، إذ نفصل موضوعنا على هذا النحو ، أن نجعل **التفاعل** المستمر بين الحب والكره مفهوماً بصورة واضحة . وتقسيم هذا الموضوع الواسع كان مع ذلك ضرورياً ، ذلك أننا ما إنْ ندرس الدور الذي تؤديه دوافع التدمير في تفاعل الحب والكره حتى يصبح ممكناً أن نبيّن كيف ينمو الحب والميل إلى التعويض في علاقة مع الدوافع العدوانية وعلى الرغم منها .

والفصل الذي كتبه جون ريفيير بيّن بوضوح أن هذه الانفعالات تبدأ تظهر في علاقة الطفل البدئية بثدي الأم وأنها تُعاش على نحو أساسي في العلاقة بالشخص المرغوب . وحتى ندرس تفاعل جميع القوى المختلفة التي تتدخّل في تكوّن الحب ، الأكثر تعقيداً من جميع العواطف الإنسانية ، من الضروري أيضاً أن نعود إلى حياة الرضيع النفسية .

أولاً ـــ حالة الرضيع الوجدانية

الموضوع الأول في الحب والكره ، الأم ، مرغوب ومكروه في وقت واحد مع كل الحدّة وكل القوة اللتين تميّزان حاجات الرضيع الأولية . فهو ، في البداية ، يحب أمه خلال اللحظة التي تشبع فيها حاجته إلى الغذاء ، وعندما تسدّ جوعه وتمنحه هذه اللذة الحسية التي يختبرها حينما يحرّض مصّ الثدي فمه . وهذا الإشباع عنصر أساسي في جنسية الطفل . والمقصود في الواقع أنه تعبيرها الأولي . وعندما يكون الطفل مع ذلك جائعاً ورغباته غير مشبعة ، أو عندما يعاني ألماً جسمياً ، أو قلقاً ، فإن الوضع يتغيّر فجأة . فيستيقظ الكره والعدوانية . وعندئذ تسيطر على الرضيع تلك الميول إلى تدمير الشخص ذاته الذي يكون الموضوع لكل رغباته والمرتبط في ذهنه ارتباطاً وثيقاً بكل ما يعانيه ، الجيد والسيء على حدّ سواء . يضاف إلى هذا أن الكره والعدوانية ، كما بيّن جون ريفيير بالتفصيل ، هما ، لدى الرضيع ، سبب حالات مؤلمة جداً كصعوبة التنفس ، والاختناق ، وبعض الإحساسات المشابهة الأخرى ، التي يحسّ بها الرضيع على أنها تدمّر جسمه ، إذ تفاقم على هذا النحو عدوانيته وكربته وخوفه .

وإشباع الأم رغبات الرضيع هو الوسيلة المباشرة والأساسية لإغاثته من هذه الحالات المؤلمة من الجوع ، والكره ، والتوتر ، والخوف . وعاطفة الأمن المؤقتة التي يحصل عليها الرضيع بفضل الإشباع ترفع كثيراً من قيمة الإشباع ذاته . وعلى هذا النحو إنما تصبح عاطفة الأمن ، كل مرة يشعر فيها شخص أنه محبوب ، عنصراً من الإشباع ذا أهمية . وهذا أمر صحيح بالنسبة للرضيع والراشد على حدّ سواء ، سواء أكانت المسألة مسألة التعبيرات الأبسط عن الحب أم مسألة التجلّيات الأكثر إعداداً . ولأن أمنا أشبعت في بادىء الأمر جميع حاجاتنا ذات العلاقة بغريزة المحافظة على البقاء ، وجميع رغباتنا الحسية ، ولأنها وهبتنا الأمن ، فإن الدور

الذي تؤديه في أنفسنا دور يدوم ، على الرغم من أن مختلف المظاهر والتعبيرات لهذا التأثير يمكنها أن لا تبدو فيما بعد على نحو واضح . ومن الممكن ، على سبيل المثال ، أن تكون امرأة من النساء منفصلة عن أمها في الظاهر وأن تبحث مع ذلك أيضاً ، بحثاً لاشعورياً ، في علاقاتها بزوجها أو بالشخص الذي تحبه ، عن خصائص علاقتها البدئية بها . والدور الهام جداً الذي يؤديه الأب في حياة الطفل الوجدانية يؤثر أيضاً في جميع علاقات الحب اللاحقة وفي جميع العلاقات الإنسانية الأخرى . ولكن علاقة الرضيع البدئية به ، من حيث أنه يستشعره وجهاً ودوداً ، وحامياً ، ومصدر إشباع ، علاقة يصوغها الرضيع جزئياً وفق علاقته بأمه .

وسرعان ما يبدأ الرضيع ، الذي ليست أمه بالنسبة له ، في بداية الأمر ، سوى موضوع يشبع جميع رغباته — إنها ثدي جيد على وجه التقريب[1] — ،

(١) — حتى أبسّط وصفي للظاهرات المعقدة جداً والمجهولة على وجهة التقريب ، التي أتكلم عليها في هذه المحاضرة ، فإنني أحرص على أن أوضّح أنني أرجع في جميع الحالات إلى الإرضاع من الثدي عندما أتكلم على مرحلة الإرضاع . وثمة جزء كبير مما أقوله ذو العلاقة بالإرضاع ، والنتائج التي أستمدّها ، ينطبقان أيضاً على الإرضاع بالرّضّاعة ، على الرغم من بعض الفوارق . وسأذكر بهذا الصدد فقرة من الفصل الذي كتبته عن « الفطام » في كتاب اشترك في تأليفه خمسة محلّلين نفسيين (نشر كيغان لول ١٩٣٦) عنوانه : **حول تربية الأطفال** : « الرضّاعة بديل عن ثدي الأم ، ذلك أنها تتيح للرضيع أن يستمتع بالمص ، وأن يقيم على هذا النحو ، إلى حدّ معيّن ، علاقة الأم الثدي تبعاً للرضاعة التي تعطيها الأم أو المرضعة . وتبيّن التجربة أن ثمة أطفالاً لم يكونوا قد تغذّوا بحليب الثدي ينمون على الغالب نمواً جيداً جداً . وقد اكتشف بعضهم في التحليل النفسي مع ذلك أن لدى بعض الأشخاص ، الذين كانوا قد ترعرعوا على الرضاع بالرضاعة ، رغبة عميقة في الثدي لم تكن قط موضع إشباع . وعلى الرغم من أن علاقة الأم الثدي كانت قد قامت إلى درجة معيّنة ، فإن النمو النفسي يتغيّر تغيراً كلياً إذا كان الإشباع الأساسي الأكثر بدئية قد حصل بواسطة بديل ، بدلاً من الموضوع المرغوب بصورة واقعية . وبصدد الأطفال الذين ينمون جيداً دون =

بالاستجابة للإشباعات التي تقدّمها له وللعناية التي توفّرها له مظهرةً عواطف الحب له بوصفه شخصاً . ولكن هذا الحب الأول له تعكّره الآن في جذوره دوافع التدمير . فالحب والكره ينكبّان على معركة في نفس الطفل ، معركة يمكنها ، إلى حدّ معيّن ، أن تدوم الحياة كلها وتصبح مصدر الخطر في العلاقات الإنسانية .

ودوافع الرضيع وعواطفه يرافقها ضرب من الفاعلية النفسية التي تبدو لي الفاعلية النفسية الأكثر بدئية : والمقصود إعداد الاستيهامات أو ، لكي نتكلم على نحو أكثر بساطة ، ملكة التخيّل . ومثال ذلك أن الرضيع الذي يرغب في ثدي أمه رغبة حادّة ، في حين أنه غير موجود ، يمكنه أن يتخيّل أنه موجود ، وأعني أن بوسعه أن يتخيّل الإشباع الذي ينجم عنه . وهذه الطريقة البدائية في إعداد الاستيهامات هي الشكل الأقدم للقابلية التي تولّد فيما بعد إنشاءات الخيال الأكثر إعداداً .

والاستيهامات الأولية التي ترافق عواطف الرضيع ذات طبيعة متنوّعة . ففي الاستيهام الذي ذكرته للتوّ ، يتخيّل الرضيع ذلك الإشباع الذي ينقصه . وثمة استيهامات مستساغة ترافق الإشباع الفعلي أيضاً في حين أن ثمة استيهامات تدمير تقترن بالإحباط وبعواطف الكره التي يثيرها هذا الإحباط . فعندما يشعر الرضيع أن الثدي يحبطه ، فإنه يهاجم الثدي في استيهاماته . وإذا أشبعه الثدي ، فإنه يحسّ بالحب له ، ولديه ، في علاقته به ، استيهامات ذات طبيعة ممتعة . ويتمنّى الرضيع ، في استيهاماته العدوانية ، أن يعضّ ويمزق أمه وثدييها وأن يدمّر أمه أيضاً

= أن يكونوا قد تغذوا من الثدي ، فإنه مسموح لنا أن نقول بطريقة أو بأخرى ، على الرغم من كل شيء ، إن نموهم كان محتملاً أن يكون مختلفاً وأفضل لو أنهم كانوا قد أفادوا من إرضاع ناجح . وجعلتني تجربتي أستنتج ، من جهة أخرى ، أن الأطفال الذين يطرح نموهم بعض المشكلات ، على الرغم من أن تغذيتهم كانت بالرضاع من الثدي ، كان ممكناً أن يوجدوا في حال أسوأ لولا ذلك » .

بوسائل أخرى .

واستيهامات التدمير هذه تكافىء تمنّيات الموت ؛ وإحدى خصائصها ذات الأهمية الكبيرة تكمن في أن لدى الرضيع انطباعاً مفاده أن ما يرغب فيه ، في استيهاماته ، يحدث حقاً : أي لديه انطباع بأنه **دمّر بالفعل** موضوع دوافع التدمير لديه وبأنه مستمرّ في تدميره .

ونتائج هذه الظروف فيما يخص نموّه الذهني ذات أهمية قصوى . وثمة استيهامات ذات قدرة كلية ، من طبيعة تعويضية ، تساعد الرضيع في مكافحة مخاوفه ، ولذلك أيضاً نتائج ذات أهمية كبيرة جداً فيما يخصّ نموه . فإذا أساء الرضيع لأمه في استيهاماته العدوانية ، إذ عضّها ومزّقها ، فإن بوسعه على وجه السرعة أن يعدّ الاستيهام الذي يعيد القِطَع معاً ويعوّض أمه[1] . وذلك لا يبدّد مع ذلك تبديداً تاماً مخاوفه من أنه دمّر الموضوع ، الموضوع الذي يحبه الحب الأكبر ، كما نعلم ، والموضوع الذي يحتاجه أكثر ما يحتاج ، والموضوع الذي أمره متوقّف عليه كلياً . وهذه النزاعات الأساسية ، في رأيي ، تؤثّر بعمق على مجرى الحياة الوجدانية لدى الراشدين وعلى حدّة عواطفهم .

ثانياً ــ الإثمية اللاشعورية

نحن جميعنا نعلم أننا نعاني عاطفة من القلق أو الإثمية إذا اكتشفنا في أنفسنا دوافع كره لشخص نحبه . ويعبّر كولردج عن ذلك على النحو التالي :

---

(١) ــ أقنعني التحليل النفسي للأطفال الصغار ، الذي أتاح لي أيضاً أن أستخلص بعض النتائج عن العمل الوظائفي للفكر في المرحلة الأكثر بدئية ، أن هذه الاستيهامات موجودة سابقاً ، على نحو فاعل ، لدى الرضّع . وبيّن لي تحليل الراشدين أن هذه الحياة الاستيهامية الأولية تدوم وتؤثّر على لاشعور الراشد تأثيراً عميقاً .

... خير لك أن تكون كالمجنون
من أن تكون مغتاظاً من الحبيبة ...

ونحن نميل إلى أن ننقل هذه العواطف ، عواطف الإثمية ، إلى المستوى الثاني ، من جرّاء كونها يصعب احتمالها . وتعبّر هذه العواطف عن نفسها مع ذلك بأساليب مقنّعة كثيرة ، وهي مصدر صعوبات في علاقاتنا الشخصية . فبعض الأشخاص ، على سبيل المثال ، يصيبهم الغمّ بسهولة لأنهم ليسوا موضع تقدير حتى من أولئك الذين لهم أهمية قليلة في أعينهم . والسبب في ذلك يكمن في أنهم لا يحسّون بأنهم جديرون ، في لاشعورهم ، بتقدير الآخرين ، ويؤكد استقبالٌ متحفّظ ظنهم وجدارتهم الضعيفة . وأشخاص آخرون (لأسباب ليست موضوعية) غير مسرورين من أنفسهم . وهم يتذرّعون بالبواعث الأكثر تنوعاً ، كجسمهم أو عملهم أو قابلياتهم العامة . وبعض هذه المظاهر معروفة جداً ، وكانت اللغة الشائعة قد وصفتها بـ « عقدة الدونية » .

وتبيّن كشوف التحليل النفسي أن لمثل هذه العواطف جذوراً أعمق مما يفترض بعضهم على وجه العموم ، وهي عواطف ترتبط دائماً بإثمية لاشعورية . والسبب الذي يحتاج من أجله بعض الأشخاص حاجة كبيرة جداً إلى المديح والاستحسان يكمن بصورة عامة في حاجتهم إلى البرهان على أن بوسع الناس أن يحبوهم وأنهم جديرون بالحب . وهذه العاطفة ناجمة عن الخوف اللاشعوري من أن يكونوا عاجزين عن أن يحبوا الآخرين حباً كافياً أو حقيقياً ، وناجمة على نحو خاص عن عجزهم عن السيادة على دوافعهم العدوانية إزاء الآخرين : إنهم يخافون من أن يكونوا خطراً على الشخص المحبوب .

ثالثاً ـــ الحب والنزاعات ذات العلاقة بالأبوين

للمعركة بين الحب والكره ، وجميع النزاعات التي تولّدها ، أصول في أولى

الطفولة الأولى ، وهي تعمل مدى الحياة كلها ، كما حاولت أن أبرهن على ذلك . إنها تبدأ في الوقت الذي تقام فيه علاقة الطفل بأبويه . والشهوانية ، في علاقة الرضيع بأمه ، جاهزة الآن وتتجلّى في إحساسات الفم الممتعة المقترنة بسيرورة المصّ . وسرعان ما سترجح الشهوانية التناسلية وستضعف الرغبة الحادة في ثدي الأم . وهذه الرغبة لا تختفي مع ذلك اختفاء تاماً ، ولكنها تظلّ فاعلة في اللاشعور وفاعلة بصورة جزئية في الشعور . ويتحوّل الاهتمام المنصبّ على الثدي ، في حالة البنت الصغيرة ، إلى اهتمام ، لاشعوري في الجزء الكبير منه ، بعضو الذكر الأبوي الذي يصبح موضوع أمنياتها واستيهاماتها الليبيدية . وبمقدار ما تترعرع البنت الصغيرة ، فإنها ترغب في أبيها أكثر من أمها ، ولديها استيهامات شعورية ولاشعورية أن تحتلّ مكان أمها ، وأن يكون أبوها لها هي نفسها وأن تصبح زوجته . وهي أيضاً غيورة جداً من أطفال أمها وتتمنّى أن يكون لها من أبيها أطفال . وهذه العواطف ، وهذه الأمنيات ، وهذه الاستيهامات ، ترافقها المنافسة والعدوانية والكره للأم ، وتنضاف إلى المطاعن التي كانت لديها ضد أمها بسبب أولى الإحباطات الأولى على الثدي . وثمة ، في ذهن البنت الصغيرة على الأقل ، استيهامات ورغبات جنسية تظلّ متوجّهة بصورة فاعلة صوب الأم ، وهي ترغب ، تحت تأثيرها ، في أن تحتلّ مكان الأب قربها . وقد يحدث أن تنمو هذه الرغبات وهذه الاستيهامات أكثر مما تنمو تلك التي تخصّ الأب . وعلى هذه النحو توجد معاً ، إلى جانب حبها لأبويها ، عواطف المنافسة للأبوين . وسيتجلّى هذا المزيج من العواطف في علاقتها بإخوتها وأخواتها . والرغبات والاستيهامات ذات العلاقة بالأم والأخوات هي الأساس ، لاحقاً ، للعلاقات الجنسية المثلية بصورة صريحة والأساس أيضاً للعواطف الجنسية المثلية التي تعبّر عن نفسها على نحو غير مباشر في الصداقات وعواطف المحبة بين النساء . وهذه الرغبات الجنسية المثلية تنتقل ، في المجرى العادي للأمور ، إلى المستوى الخلفي وتتحوّل وتتصعّد ، في

حين يسود الانجذاب نحو الجنس الآخر .

وثمة تطور مقابل يحدث لدى الصبي الصغير ، الذي سرعان ما يعاني رغبات تناسلية تجاه أمه وعواطف كره لأبيه الذي يعتبره منافساً . ولكن ثمة رغبات تناسلية تبرز لديه تجاه الأب ، وذلك ما يكوّن جذر الجنسية المثلية لدى الرجل . وهذه الأوضاع تولّد نزاعات عديدة ، ذلك أن البنت الصغيرة تحب أمها أيضاً على الرغم من أنها تكرهها ، ويحب الصبي الصغير أباه ويتمنّى أن يحميه من الخطر الناجم عن ميوله العدوانية . يضاف إلى هذا أن الموضوع الرئيس للرغبات الجنسية ، الأب لدى البنت والأم لدى الصبي الصغير ، يوقظ كرهاً وثأراً لأن هذه الرغبات ليست مشبعة .

والطفل غيور أيضاً بحدة من إخوته وأخواته من حيث أنهم منافسون في حب الأبوين . وهو يحبهم أيضاً مع ذلك ؛ وعلى هذا النحو إنما تنبعث مجدّداً نزاعات عنيفة بين الدوافع العدوانية والحب . وتولّد هذه النزاعات عواطف الإثمية وتولّد ، هنا أيضاً ، تمنّيات مفادها أن يكون زكياً . ولهذا المزيج من العواطف نتيجة ذات أهمية لا في علاقاتنا بإخوتنا وأخواتنا فحسب ، ولكن لها ، بالنظر إلى أن علاقاتنا بالآخرين تقام على وجه العموم وفق النموذج نفسه ، نتيجة ذات أهمية أيضاً فيما يخصّ اتجاهاتنا الاجتماعية ، وعواطف الحب والإثمية لدينا ، وأمنيتنا أن نزكو لاحقاً .

رابعاً ــ الحب ، والإثمية ، والحاجة إلى التعويض

قلت فيما سبق إن ثمة عواطف من الحب والعرفان بالجميل كانت تستيقظ وبصورة عفوية لدى الرضيع استجابة لحب الأم وعنايتها . ولديه ماثلة أيضاً ، كما ميول التدمير ، قدرته على الحب ، وهي تجلّي القوى التي تنزع إلى المحافظة على الحياة . ويجد الحب تعبيره الأول الأساسي في تعلّق الرضيع بثدي الأم ، تعلق

يتحوّل إلى حب لها من حيث هي شخص . وممارستي التحليل النفسي أقنعتني أن ثمة خطوة ذات أهمية كبرى من النمو تتمّ عندما تستيقظ النزاعات بين الحب والكره في نفس الرضيع ، وعندما يصبح الخوف من فقدان الشخص نشيطاً . وتتدخّل عواطف الإثمية والحصر الآن بوصفها عنصراً جديداً في انفعال الحب . وتصبح هذه العواطف جزءاً ملازماً للحب وتؤثّر فيه تأثيراً عميقاً ، في الكم والكيف معاً .

ومن الممكن أن يلاحظ المرء ، حتى لدى الطفل الصغير ، ضرباً من القلق على الشخص المحبوب ، قلق ليس علامة التبعية على سبيل الحصر ، كما يظنّ بعضهم ، لشخص محب يساعدنا . وثمة ، في لاشعور الطفل والراشد ، وإلى جانب دوافع التدمير ، حاجة عميقة إلى التضحية حتى نساعد ونعوّض الأشخاص المحبوبين الذين آذيناهم أو الذين دمّرناهم في الاستيهامات . والحاجة إلى جعل الناس سعداء ترتبط في أعماق النفس بضرب قوي من عاطفة المسؤولية والقلق تجاههم ، عاطفة تتجلّى على شكل تعاطف صادق مع الآخرين واستعداد لفهمهم كما هم .

خامساً ــ التوحّد والتعويض

أن نكون عطوفين حقاً أمر ينطوي على أن بمقدورنا أن نضع أنفسنا مكان الآخرين وأن بمقدورنا أن « نتوحّد » بهم . وهذه القدرة على التوحّد بشخص آخر عنصر من العناصر الأكثر أهمية في العلاقات الإنسانية بصورة عامة . وهي أيضاً شرط لنحب حباً حقيقياً وقوياً . وإذا كنا قادرين على أن نتوحّد بالشخص المحبوب ، فليس بوسعنا إلا أن نهمل عواطفنا الخاصة ورغباتنا أو نضحّي بها إلى حدّ معيّن ، وأن نجعل أيضاً اهتمامات الآخر وانفعالاته ، خلال بعض من الزمن ، تنتقل إلى المستوى الأول . وبالنظر إلى أننا ، حين نتوحّد بالأشخاص الآخرين

ونشاطرهم على وجه التقريب ذلك العون أو الإشباع اللذين وفّرناهما لهم ، فإننا نفوز فوزاً جديداً ، من جانب ، بما ضحّينا به من الجانب الآخر[1] . ونحن ، في

---

(١) ـــ ثمة ، كما قلت في البداية ، تفاعل مستمرّ بين الحب والكره في كل منا . وموضوعي لا يعنى مع ذلك إلا بالدروب التي ينمو الحب وفقاً لها ويتوطّد ويستقرّ . وبالنظر إذن إلى أنني لن أتكلم كثيراً على العدوانية ، فإن عليّ أن أُفهِم بوضوح أن العدوانية تتجلّى نشيطة أيضـــاً حتى لدى الأشخـاص الذين تتصف قابليتهـم للحب بأنها ناميـة بوجه خاص . والعدوانية والكره لدى هؤلاء الأشخاص (والكره معتدل وتوازنه القدرة على الحب إلى حدّ معيّن) همـا ، بوجـه عام ، يُستخدمان استخداماً كبـيراً على نحوٍ بنّـاء (« مصعّد » كما يقال). وليس ثمة ، في الواقع ، فاعلية خصبة دون أن تدخل فيها جرعة معيّنة من العدوانية . ولنضرب مثالاً على ذلك مشاغل ربة منزل : فمن المؤكد أن فعل التنظيف ، إلخ ، يشهد على رغبتها في أن تجعل الأشياء ممتعة للآخرين ولها معاً . إن هذا العمل إذن مظهر من مظاهر الحب إزاء الآخرين والأشياء المسؤولة عنها . ولكن ربة المنزل تعبّر في الوقت نفسه ، بوضع حدّ للعدو : الغبار ، الذي يمثّل الأشياء « السيئة » في لاشعورها ، عن عدوانيتها . فالكره والعدوانية الأصيلان ، الناشئان من المصادر الأكثر قدماً ، يمكنهما أن يتجلّيا لدى نساء أصبحت النظـافة لديهن وسـواسية . ونحن جميعنا نعرف هذا النموذج من المرأة التي تجعل أعضاء الأسرة تعساء « إذ ترتّب أساس المنزل » باستمرار . والكره هنا موجّه في الواقع إلى الناس الذين تحبهم وتُعنى بهم . فكره الناس والأشياء الذين نستشعرهم مكروهين (سواء أكان الأمر متعلقاً بأشخاص لا نحبهم أم بمبادىء سياسية ، وفنية ، ودينية أو أخلاقية لسنا على وفاق معها) وسيلة عادية لنحرّر ـــ بطريقة نحسّ بأنها مسموحة وربما تكون في الواقع بنّـاءة تماماً ، شـريطـة أن لا يتجـاوز ذلك بعض الحدود ـــ عواطفنـا ، عواطف الكره ، والعدوانية ، والازدراء ، والاحتقار . وعلى الرغم من أن هذه العواطف تتجلّى على طريقة الراشدين ، فإن المقصود في الحقيقة تلك العواطف التي خبرناها في الطفولة عندما كنا نكره الأشخاص الذين كنا نحبهم أيضـاً في الوقت نفسه ، أي آباءنا . وحاولنا حتى عندئذ أن نحافظ على حبنا لآبائنا وأن نحوّل كرهنا صوب أشخاص آخرين أو أشياء أخرى ، وتلك سيرورة تستقرّ بنجاح أكبر حين نكون ، وقد أصبحنا راشدين ، قد نمّينا استعدادنا للحب ورسّخناه ووسّعنا أيضاً حقل اهتماماتنا وعلاقاتنا الودّية وضروب كرهنا . ولنضرب بعض الأمثلة الإضافية نقول إن عمل رجال القانون ، وعمل الذين يهتمون بالسياسة ، والنقاد ، =

نهاية المطاف ، حين نضحّي في سبيل شخص نحبه وحين نتوحّد بالشخص المحبوب ، فإننا نؤدي دور والد طيّب ونسلك مع هذا الشخص كما كنا نشعر أن آباءنا كانوا يسلكون معنا في الزمن الماضي أو كما كنا نتمنى أن يفعلوا ذلك . ونحن ، في الوقت نفسه ، نؤدي الدور الذي كنا نأمل أن نؤديه في الماضي ، دور الطفل الصالح إزاء أبويه ، دور نعيشه الآن في الواقع الراهن . وهكذا فإننا حين نعكس الوضع ، أي حين نتصرّف إزاء شخص آخر تصرف الأب الطيّب ، نخلق في الاستيهام مجدّداً الحب والطيبة اللذين تمنيناهما أن يكونا لدى آبائنا ، ونحن نستمتع بهما . والتصرّف إزاء الآخرين بوصفهم آباء طيبين ربما يكون أيضاً ، من جهة أخرى ، طريقة للتخلّص من إحباطات الماضي وآلامه . وضغائننا على آبائنا لأنهم أحبطونا ، والكره والانتقام اللذين ولّدتهما هذه الضغائن ، والإثمية واليأس اللذين يولّدهما هذه الكره وهذه الرغبة في الانتقام — لأننا آذينا آباء كنا نحبهم —، كل ذلك ربما يُمحى في الاستيهام بصورة ارتجاعية (بفعل زوال بعض الأسباب التي تبرّر الكره) من جرّاء تأديتنا معاً دور الآباء المحبين ودور الأطفال المحبّين . ونحن نحوّل في الوقت نفسه إلى خير ذلك الشر الذي ارتكبناه في استيهامنا والذي لا نزال نشعر بأننا آثمون لاشعورياً بسببه . وفي رأيي أن هذه **الطريقة في التعويض** عنصر أساسي في الحب وفي جميع العلاقات الإنسانية . ولهذا السبب فإنني سأعود إلى هذا الموضوع في ما يلي من هذا البحث عوداً متواتراً .

= ينطوي على مقاومة المعارضين ، ولكن بطريقة محسوسة أنها مسموحة ومفيدة . وهنا أيضاً تنطبق النتائج السابقة . وبين الطرق العديدة في التعبير عن العدوانية بشكل مشروع بل خليق بالثناء ، ثمة اللعبة التي يُهاجم فيها الخصم هجوماً مؤقتاً (وواقع أن اللعبة تكون مؤقتة يساعد أيضاً على إضعاف الإثمية) يرافقه عواطف ناشئة ، هنا أيضاً ، من أوضاع قديمة . فثمة إذن طرق عديدة ، مصعّدة ومباشرة ، تتجلّى فيها العدوانية والكره لدى الناس الذين يتصفون ، من جهة أخرى ، بأنهم طيّبون جداً وقادرون جداً على الحب .

سادساً ــ علاقات حب مرْضية

لندرس الآن ، آخذين بالحسبان ما قلته عن أصول الحب ، حالة خاصة من العلاقات بين راشدين ، ضاربين المثال في بادىء الأمر على علاقة حب مرْضية ومتينة كما يمكننا أن نجدها في زواج سعيد . وينطوي ذلك على تعلّق عميق ، وعلى استعداد للتضحية المتبادلة ، وعلى المشاطرة في الحزن واللذة ، والاهتمامات والاستمتاع الجنسي . وتوفّر علاقة هذه طبيعتها أكبر مجال لتجلّيات الحب ، التجلّيات الأكثر تنوّعاً[1] . وإذا كان للمرأة اتجاه أمومي إزاء الرجل ، فإنها تشبع (بقدر ما هو ممكن) أمنيات الرجل الأكثر قدماً ، أمنياته الخاصة التي كان يرغب فيها من أمه . وهذه الأمنيات لم تكن قط ، في الماضي ، مشبعة كل الإشباع ولا مهملة كل الإهمال . ولدى الرجل الآن ، على وجه التقريب ، هذه الأم محل أمه مع قليل من الإثمية نسبياً (وسأقدّم السبب فيما بعد لهذه الظروف على نحو تفصيلي) . وإذا كان لدى المرأة حياة وجدانية نامية بصورة قوية ، فإنها تكون قد احتفظت ، إلى جانب امتلاك هذه العواطف الأمومية ، بشيء من اتجاه الطفل إزاء أبيه ، وستندمج عناصر هذه العلاقة القديمة في علاقتها بزوجها . ومثال ذلك أنها ستثق بزوجها وتُعجب به . وسيكون بالنسبة لها شخصية تحمي ، ومعواناً كما كان أبوها . وستكوّن هذه العواطف أسس علاقة بوسع رغبات المرأة الراشدة

---

(١) ــ سأعالج على وجه الخصوص ، في دراسة العواطف والعلاقات الراشدة ، خلال هذا المقال ، نتائج الدوافع الأولى ، والعواطف الأولى ، والاستيهامات اللاشعورية ، على مظاهر الحب اللاحقة . وأفهم أن ذلك يقود بالضرورة إلى عرض وحيد الجانب بعض الشيء ، وإجمالي ، ذلك أنني لست قادرة على هذا النحو أن أوفّي العوامل الكثيرة الناجمة عن التفاعل المستمر بين تأثيرات العامل الخارجي وقوى الفرد الداخلية ، التي تتدخّل معاً في تكوين العلاقة في سن الرشد ، حقها من الدراسها .

وحاجاتها أن تجد إشباعاً تاماً . وهذا الاتجاه لدى المرأة سيتيح للزوج ، من جهة أخرى ، أن يبدو حامياً ومعواناً بطرق شتى ، وأعني أنه ، في لاشعوره ، سيؤدي دور الزوج الصالح إزاء الأم .

وإذا كانت المرأة قادرة على أن تكابد حباً قوياً لزوجها وأولادها معاً ، فإن بوسعنا أن نستخلص من ذلك أنه كانت لها على وجه الاحتمال الكبير ، في طفولتها ، علاقة جيّدة بأبويها وإخوتها وأخواتها ، وأعني أنها كانت قادرة على أن تتجاوز على نحو مرْضٍ عواطف الكره الأولى والانتقام إزاءهم . وكنت قد ذكرت سابقاً أهمية الأمنية اللاشعورية لدى البنت الصغيرة ، أمنية أن يكون لها طفل من أبيها ، وأهمية الرغبات الجنسية ذات العلاقة به ، رغبات مرتبطة بهذه الأمنية . وإحباط الأب رغباتها التناسلية يجعل بعض الاستيهامات العدوانية الحادة تبدو لديها ، وهي استيهامات ذات مفعول حاسم على استعدادها للشعور بإشباع جنسي حينما تصبح راشدة . وهكذا تنتهي الاستيهامات الجنسية لدى البنت الصغيرة إلى أن ترتبط بالكره الموجّه بنوع خاص لعضو الذكر الأبوي ، لأنها تحسّ أن هذا الشيء لا يمكنه أن يوفّر الإشباع الذي تتلقّاه أمها . وتأمل البنت الصغيرة ، في غيرتها وكرهها ، أن يكون هذا الشيء خطراً وسيئاً — شيئاً لن يمكنه أن يشبع أمها أيضاً . فيكتسب عضو الذكر على هذا النحو ، في استيهامها ، صفات التدمير . وبسبب هذه الأمنيات اللاشعورية المركّزة على إشباعات الآباء الجنسية ، فإن الأعضاء الجنسية والإشباعات الجنسية تتّخذ سمة سيئة وخطرة . وهذه الاستيهامات العدوانية تتبعها في ذهن البنت ، هنا أيضاً ، أمنيات مفادها أن تزكو — وعلى وجه أخص استيهام ذو علاقة بشفاء عضو الذكر الأبوي الذي آذته في ذهنها أو جعلته سيئاً . واستيهامات الشفاء هذه ترتبط أيضاً بعواطف ورغبات جنسية . وجميع هذه الاستيهامات اللاشعورية تؤثّر تأثيراً كبيراً على عواطف المرأة إزاء الزوج . فإذا كان الزوج يحبها ويشبعها جنسياً ، فإن استيهامات

السادية اللاشعورية ستفقد شيئاً من قوتها ؛ ولكن هذه الاستيهامات ، بالنظر إلى أنها لا تغيب أبداً غياباً كلياً (على الرغم من أنها لا تكون ، لدى امرأة سوية على وجه التقريب ، حاضرة إلى درجة تكبح الميل إلى الانصهار بدوافع أكثر إيجابية أو جنسية)، تحرّض على ظهور استيهامات ذات طبيعة تعويضية . والحاجة إلى التعويض تدخل على هذا النحو مجال العمل مرة إضافية أخرى . والإشباع الجنسي لا يؤمّن اللذة للمرأة فحسب ، بل يطمئنها ويدعمها أيضاً ضد الخوف والإثمية ، وهما عاقبة أمنياتها السادية الأولية . ويرفع هذا التشجيع من قيمة الإشباع الجنسي ويولّد لديها عواطف الاعتراف بالجميل والحنان ، ويجعل الحب أكبر مما هو عليه في الوقت نفسه . ولأن ثمة ، في جهة من أعماق نفسها ، تلك العاطفة التي مفادها أن جنسها خطر ويمكنه أن يضرّ بجنس زوجها (عاطفة ناجمة عن استيهاماتها العدوانية إزاء أبيها)، لهذا السبب على وجه الضبط ينشأ جزء من إشباعها الذي تناله من كونها قادرة على أن تهب زوجها لذة وسعادة ، وذلك أمر يبرهن أيضاً على أن جنسها شيء جيد .

ولأنه كان لديها ، وهي بنت صغيرة ، استيهامات مفادها أن جنس أبيها كان خطراً ، فإن هذه الاستيهامات تستمرّ في أن تمارس ضرباً من التأثير على لاشعور المرأة . وإذا كان لها مع ذلك علاقة سعيدة ومرْضية بزوجها من الناحية الجنسية ، فإنها ستستشعر أن جنس زوجها شيء جيد ، وسيقوم البرهان على بطلان مخاوفها من جنس سيء . وعلى هذا النحو فإن الإشباع الجنسي يطمئن المرأة اطمئناناً مضاعفاً : إنها جيّدة وزوجها جيد . ويزداد الاستمتاع الجنسي بفعل الانطباع الحاصل على هذا النحو . ولواقع كون المرأة مطمئنة نتائج أخرى أيضاً . فالغيرة والكره اللذان تكابدهما المرأة في البدء إزاء أمها ، المنافسة في حب الأب ، أدّيا دوراً كبيراً في استيهاماتها العدوانية . والسعادة المتبادلة الحاصلة في الوقت نفسه بفعل الإشباع الجنسي ، وبفعل علاقة بزوجها ، علاقة سعادة ومحبة ، ستشعرها

أيضاً ، بصورة جزئية ، أنها إشارة مفادها أن أمانيها السادية إزاء أمها لم يكن لها عواقب أو أن التعويض كان ناجحاً .

والاتجاه الوجداني لدى الرجل وجنسيته هما ، متأثران بماضيه في علاقته بزوجته . فإحباط أمه رغباته التناسلية عندما كان طفلاً أيقظ استيهامات لديه كان عضو الذكر الخاص به قد أصبح فيها آلة قادرة على أن تجعلها تتألم وأن تسبّب لها الأذى . وكانت الغيرة من أبيه وكره هذا الأب ، المنافس في حب أمه ، قد جعلت أيضاً بعض الاستيهامات ذات الطبيعة السادية تبدو موجّهة ضده بصورة موازية . وهذه الاستيهامات العدوانية الأولية ، التي قادت إلى الخشية من أن يكون عضو الذكر لديه عضو تدمير ، تدخل إلى حدّ معين مجال العمل في العلاقة الجنسية بالشريك في الحب . وبفعل تحوّل شبيه في طبيعته بالتحوّل الذي وصفته لدى المرأة ، يحرّض الدافع السادي المذكّر ، إذا لم يكن مفرطاً ، استيهامات التعويض . ويستشعر الرجل عندئذ عضو الذكر أنه عضو جيد وشافٍ ، يجلب اللذة للمرأة ، ويشفي جنسها المعطوب ويمنحها أطفالاً . وتؤمّن للرجل علاقة سعيدة بامرأته ، مرْضية أيضاً من الناحية الجنسية ، براهين على أن عضو الذكر لديه جيّد . وتمنحه أيضاً ذلك الانطباع اللاشعوري الذي مفاده أن أمنياته بتجديد هذه العلاقة قد تحقّقت . ولا تلفي هذه اللذة الجنسية نفسها قد تنامت وتنامى أيضاً حبه وحنانه لامرأته فحسب ، ولكن هذه العلاقة تولّد ، هنا أيضاً ، عواطف العرفان بالجميل والأمن . وهذه العواطف يمكنها ، بالإضافة إلى ذلك ، أن تنمّي استطاعته الخلاّقة في مجالات أخرى وتؤثّر على استعداده للعمل والانكباب على نشاطات أخرى . وإذا استطاعت امرأته أن تشاطره اهتماماته (مثلما تشاطره الحب والإشباع الجنسي) ، فإنها تقدّم له البراهين على قيمة عمله . وتجد نفسها متحقّقة بشتى هذه الوسائل ، في علاقته بها ، أمنيته القديمة بأنه قادر على أن يفعل لها ما كان أبوه يفعل لأمه ، من الناحية الجنسية والنواحي الأخرى ، وأن يتلقّى

منها ما كان أبوه يتلقّى من أمه . ولعلاقة سعيدة بامرأته أيضاً نتيجة مفادها تلطيف عدوانية الرجل إزاء أبيه ، عدوانية كان يحرّضها تحريضاً كبيراً عجزه عن أن يتزوج أمه . ومن الممكن أن يطمئنه ذلك على أمر مفاده أن ميوله السادية القديمة ضد أبيه لم يكن لها نتائج . وبالنظر إلى أن المطاعن ضد أبيه والكره له أثّرا في عواطفه إزاء الناس الذين توصلوا إلى أن يمثّلوه وأن الضغائن ضد أمه أضرّت بعلاقته مع النساء اللواتي كنّ يمثّلنها ، فإن علاقة حب مرْضية تعدّل تصوّر الحياة لديه وتعدّل بصورة عامة اتجاهه إزاء الناس والأشياء . فحيازته الحب وتثمين امرأته له يمنحانه انطباعاً مفاده أنه أصبح راشداً كل الرشد وأنه يكافىء على هذا النحو أباه . والمنافسة معه ، العدائية والعدوانية ، تضعف وتخلي مكانها لتنافس أكثر ودّاً مع أبيه (أو بالحري مع أشخاص يُعجب بهم ويمثّلون الأب)، تنافس يخصّ وظائف وإنجازات منتجة : ومن المحتمل جداً أن يرفع ذلك من قيمة انتاجيته أو يجعلها تتنامى .

وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة . فعندما تحسّ امرأة إحساساً لاشعورياً ، في علاقة حب سعيدة برجل ، أن بوسعها على وجه التقريب أن تحتلّ المكان الذي كانت أمها تحتلّه قرب زوجها ، وأنها تنال إشباعات كانت أمها تستمتع بها وكانت هذه الإشباعات مرفوضة بالنسبة لها وهي طفلة ، فإنها تصبح عندئذ قادرة على أن تشعر بأنها تكافىء أمها ، وعلى أن تستمتع بالسعادة نفسها ، وبالحقوق ذاتها ، والامتيازات عينها ، التي كانت أمها تستمتع بها ، دون أن تنال منها أو تسرقها . والنتائج فيما يخص اتجاهها ونمو شخصيتها شبيهة بالتغيّرات التي تحدث لدى الرجل عندما يصبح مكافئاً لأبيه في زواج سعيد .

وعلى هذا النحو فإن علاقة تصاغ ، لدى الشريكين ، من الإشباع الجنسي المتبادل والحب المتبادل سيستشعرانها كما لو أنها كانت قد أبدعت ، في قلب السعادة ، حياتهما الأسرية السابقة إبداعاً جديداً . فالكثير من الأمنيات

والاستيهامات لا يمكنها أبداً أن تكون مشبعة في الطفولة ، لا لأن ذلك ليس ممكناً فحسب ، ولكن لأن ثمة أيضاً ، في اللاشعور ، أمنيات متناقضة في آن واحد[1] .

(١) ــ يأمل الطفل على سبيل المثال ، إذا كان صبياً ، أن تكون أمه له طوال اليوم كله ، وأن يقيم علاقات معها ، وأن يمنحها أطفالاً . ويأمل أن يقتل أباه لأنه غيور منه ، ويحرم إخوته وأخواته من كل ما يخصّهم ، ويطردهم من المنزل إذا وقفوا في طريقه . ومن الواضح أن هذه الأمنيات المتعذّر تحقيقها ستكون سبباً ، بالنسبة له ، لإثمية كبرى لو أنها كانت مستجابة . وحتى تحقيق رغبات التدمير ، التي تمضي إلى بعد أقل بكثير من بعد هذه الأمنيات ، يمكنه أن يولّد نزاعات عميقة . فثمة أكثر من طفل ، على سبيل المثال ، سيشعر بالإثم لو أنه أصبح أثير أمه لأن أباه وإخوته وأخواته سيكونون مهملين إلى حدّ أقصى . وذلك ما أعنيه حينما كتبت أن ثمة ، في اللاشعور ، أمنيات متناقضة في آن واحد . فرغبات الطفل غير محدودة وكذلك دوافع التدمير المرتبطة بهذه الرغبات ، ولكن لديه أيضاً في الوقت نفسه ــ لاشعورياً أو شعورياً ــ ميولاً متناقضة . إنه يريد أيضاً أن يحب ويعوّض أبويه . والواقع أن ما يريده هو أن يقلّص الراشدون الموجودون حوله عدوانيته وأنانيته لأنه يكابد الندم والانطباع الذي مفاده أنه غير جيّد إذا أُرخي العنان لميوله . والواقع أن الطفل يعتمد على الراشدين ليقدّموا له هذه العون وكذلك المساعدات الأخرى التي هي ضرورية له . وخلاصة القول إن من غير المناسب على الإطلاق ، من وجهة النظر السيكولوجية ، أن نحاول حلّ مشكلات الأطفال بعدم إحباطهم أبداً . ومن الطبيعي أن الإحباط الذي لا يكون بالفعل ضرورياً أو الإحباط الذي يكون عبثياً ، ذلك الإحباط الذي يشهد على نقص الحب والفهم ، يمكنه أن يسبّب كثيراً من الأذى . ومن المهم أن نفهم أن نمو الطفل منوط باستعداده لإيجاد الوسيلة لتحمّل الإحباطات المحتومة والضرورية التي تشارك إلى حدّ كبير في تكوّن هذا النمو . وعلى الطفل أيضاً أن يجد الوسيلة لتحمّل النزاعات بين الحب والكره التي هي نتيجة هذه الإحباطات ، أي إن عليه أن يجد دربه بين الكره ، الذي تفاقمه الإحباطات ، والحب ، وكذلك رغبته في التعويض ، وتلك عواطف تجلب معها آلام الندم . والطريقة التي يتكيّف بها الطفل في نفسه مع هذه المشكلات تكوّن أساس العلاقات الاجتماعية اللاحقة جميعها ، وأساس قدرته على الحب بوصفه راشداً ، وأساس نموه الثقافي . والطفل قد يساعده حب الذين يحيطون به وفهمهم مساعدة كبيرة جداً ، ولكن أي شخص لا يمكنه أن يحلّ هذه المشكلات العميقة بدلاً منه أو أن يلغيها .

ويبدو مفارقاً أن يكون تحقيق العديد من رغبات الطفولة متعذّراً إلا عندما يصبح الفرد راشداً . والأمنية القديمة بأن يكون الأب أو الأم للطفل وحده لا تزال ، في علاقة سعيدة بين الأشخاص الآخرين ، تعيش في اللاشعور . ولا يتيح الواقع بالطبع أن يكون الصبي الصغير زوج أمه أو البنت الصغيرة زوجة أبيها . وحتى لو أن ذلك كان ممكناً ، فإن ثمة عواطف من الإثمية إزاء الآخرين كانت ستتداخل مع الإشباع . وإذا كان الطفل مع ذلك قادراً على أن يقيم في استيهامه مثل هذه العلاقات بالأبوين ، وأن يتجاوز الإثمية بهذه الاستيهامات تجاوزاً جزئياً ، وأن ينفصل تدريجياً عن الأبوين وهو مستمرّ بحبهما في الوقت نفسه ، في هذا الوضع فقط يصبح عندئذ قادراً على تحويل هذه الرغبات على الأشخاص الآخرين الذين يمثّلون عندئذ موضوعات الماضي المرغوبة ، على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص لا يماثلون موضوعات الماضي . وهذا يعني أن استيهامات الفرد لا يمكنها أن تكون مشبعة إلا في سن الرشد إذا ترعرع بالمعنى الحقيقي للكلمة . يضاف إلى هذا أن الإثمية التي تولّدها هذه الرغبات الطفلية يمكنها عندئذ أن تكون في حال من السكينة بفعل واقع ، بفعله على وجه الضبط ، مفاده أن وضعاً حلم به في الطفولة أصبح الآن واقعياً ومسموحاً ، واقعياً ومسموحاً على نحو يبرهن أن الأضرار المختلفة التي كانت مرتبطة بهذا الوضع ، في الاستيهام ، لم تكن قد أصابت الأشخاص الذين وُجّهت إليهم .

وعلاقة راشدة سعيدة كالتي وصفتها للتو يمكنها أيضاً أن تعني ، كما قلت فيما سبق ، أن الوضع الأسري القديم قد بُعث مجدّداً . وستكون هذه العلاقة كاملة تماماً ، وستكون عاطفة الاطمئنان والأمن التي ترافقها أكبر عندما يكون الرجل والمرأة قد أقاما علاقة جديدة مع أطفالهما . وذلك أمر يقودنا إلى موضوع الوالدية .

سابعاً ــ الوالدية : أن يكون المرء أماً

سندرس أول الأمر علاقة حب حقيقي بين أم ورضيعها كما تتكوّن إذا كان للمرأة شخصية أم تماماً . فثمة كثير من الأبناء الذين يربطون بين علاقة أم بطفلها وبين علاقتها في الطفولة بأمها هي . ولدى الأطفال رغبة قوية جداً ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، في أن يكون لهم أطفال . وجسم الأم ، في الاستيهامات اللاشعورية للبنت الصغيرة ، مليء بالأطفال . وهي تتخيّل أن عضو الذكر الأبوي كان قد وضع هؤلاء الأطفال داخل جسم الأم ، وهذا العضو ، عضو الذكر الأبوي ، هو رمز الخلق ، والاستطاعة ، وما هو جيد ، في وقت واحد بالنسبة لها . وهذا الإعجاب السائد ، إعجاب البنت الصغيرة بأبيها وبأعضائه الجنسية ، خالقة الحياة ومولّدتها ، يرافق رغبتها الحادة في أن يكون لها أطفال ، وأن تمتلك أطفالاً داخلها على أنهم الشيء الأثمن .

ويُلاحظ يومياً أن البنات الصغيرات يلعبن مع لعباتهن كما لو أنها كانت أطفالاً . وستُظهر بنت صغيرة تفانياً مشبوب العاطفة للعبتها ، ذلك أن هذه اللعبة أصبحت بالنسبة لها طفلاً حياً وواقعياً ، وصديقة تشكّل جزءاً من حياتها . فهي لا تنقلها معها إلى أي مكان تحلّ فيه فحسب ، بل لا تنساها أبداً . وتبدأ يومها معها ، ولا تتخلّى عنها إلا بنفور إذا فرض عليها أحدهم أن تفعل شيئاً آخر من الأشياء . وتظلّ هذه الرغبات التي تُعاش في الطفولة ، لدى المرأة ، وتساهم مساهمة كبيرة في تعزيز الحب الذي تستشعره امرأة حبلى للطفل الذي ينمو في داخلها ثم للطفل الذي ولدته . ويمحو الإشباع الناجم عن أنها حصلت عليه ألم الإحباط الذي عاشته في الطفولة عندما كانت ترغب في طفل من أبيها ولم يكن بوسعها أن تناله . وهذا الإنجاز المؤجّل زمناً طويلاً ، إنجاز رغبة هامة كل الأهمية ، ينزع إلى أن يجعلها أقل عدوانية وينمّي قدرتها على حب طفلها . يضاف إلى ذلك

أن عجز الطفل وحاجته الكبيرة إلى عناية أمه يقتضيان حباً أكبر مما يمكنها أن تمنحه إلى أي شخص آخر . وهكذا فإن نزوع الأم إلى الحب والبناء يمكنه أن يجد مجال عمل . وتستغلّ بعض الأمهات ، كما نعلم ، هذه العلاقة لإشباع رغباتهن الخاصة ، أي رغبتهن في امتلاك أحد يُناط أمره بهن . وتريد هؤلاء النسوة أن يتعلّق بهنّ أطفالهن ، ويمقتن أن يرينهم يترعرعون ويكتسبون فرديتهم الخاصة . ولعجز الطفل ، بالنسبة لنساء أخريات ، نتيجة مفادها أن جميع رغبات التعويض الناشئة عن مصادر متنوّعة سيكون بمقدورها أن تتجلّى ، رغبات يمكنها الآن أن تمارس عملها على هذا الطفل المرغوب جداً ، الذي يرضي أمنياتهن الأكثر قدماً . وعاطفة من عواطف العرفان بالجميل لهذا الطفل ، الذي يوفّر لأمه فرح القدرة على الحب ، ترفع من قيمة هذه العواطف ويمكنها أن تقود إلى اتجاه سيكون خير الطفل فيه شاغلها الأول ، وسيكون الإشباع الذي تستشعره مرتبطاً بهنائه .

وتتحوّل طبيعة العلاقات بين الأم وأطفالها بالطبع عندما يكبرون . وسيكون موقفها من أطفالها الأكبر سناً متأثّراً على وجه التقريب بموقفها الماضي من إخوتها وأخواتها وأبناء أعمامها ، إلخ . وبعض الصعوبات ذات الصلة بهذه العلاقات الماضية يمكنها أن تتداخل مع العواطف التي تستشعرها إزاء طفلها ، وعلى وجه الخصوص إذا تكوّنت لدى هذا الطفل ردود فعل وسمات تنزع إلى إيقاظ هذه الصعوبات في نفسها . فغيرتها من إخوتها وأخواتها ، والمنافسة معهم ، كانتا قد ولّدتا أمنيات الموت واستيهامات عدوانية كانتا تسبّب لهم الأذى أو تدمّرهم ذهنياً بواسطتها . وإذا كانت الإثمية والنزاعات الناشئة من هذه الاستيهامات ليستا قويتين جداً ، فإن لإمكان التعويض حرية أكبر في التجلّي وعواطف الأمومة يمكنها أن تعمل عملها الوظائفي بحرية .

وثمة عنصر من عناصر الاتجاه الأمومي يوحي بالاعتقاد أن الأم قادرة على أن

تضع نفسها مكان الطفل وأن ترى الأشياء من وجهة نظره . فقدرتها على أن تتصرّف على هذا النحو بحب وحنوّ ترتبط ، كما رأينا ، بالإثمية والحاجة إلى التعويض ارتباطاً وثيقاً . وإذا كانت الإثمية مع ذلك قوية جداً ، فإن هذا التوحّد يمكنه أن يقودها إلى أن تنذر نفسها للطفل كلياً ، وذلك أمر يضرّ به كثيراً . ونحن نعرف جميعاً أن الطفل الذي كانت أم قد ربّته تربية تغرقه فيها بالحب ولا تتوقّع منه شيئاً بالمقابل يصبح طفلاً أنانياً على الغالب . وغياب القدرة على الحب والتقييم ، لدى طفل من الأطفال ، هو العلامة ، إلى حدّ معيّن ، على ضرب من إثمية الأم ، قوية جداً . وتساهل الأم الكبير جداً مع الطفل ينزع إلى تنامي الأمن ولا يمنح ، بالإضافة إلى ذلك ، ميوله الخاصة إلى التعويض حرية كافية في التصرف ، وإلى التضحية في بعض الأحيان ، وإلى أن يأخذ الأشخاص الآخرين بالحسبان[1] .

وإذا لم تكن الأم مع ذلك مشغولة بطفلها على وجه الحصر الكبير ، وإذا لم تكن تتوحّد به كثيراً ، فإنها تكون قادرة على أن تستخدم حكمتها لتقود الطفل على النحو الأكثر جدوى . وستستمدّ عندئذ إشباعاً تاماً من إمكان تسهيل نموه ، إشباع يرفع من قيمته الاستيهام الذي مفاده أن تفعل لطفلها ما كانت أمها تفعل من أجلها أو ما كانت ترغب في أن تفعل أمها من أجلها . وهي إذ تنجز ذلك ، فإنها تردّ إلى أمها ما كانت قد منحتها وتحوّل إلى خير ذلك الشر الذي أوقعته في الاستيهام بأطفال أمها . وذلك أمر يضعف الإثمية أيضاً .

---

(١) ـــ لقسوة الآباء وغياب الحب من جهتهم نتائج ضارّة أيضاً (على الرغم من أنها لا تتجلّى على النحو نفسه) . وهذا الموضوع ذو علاقة بالمشكل الهام ، الخاص بالطريقة التي يؤثر بها الوسط على النمو الوجداني للطفل تأثيراً ملائماً أو غير ملائم . إنه يتجاوز مع ذلك إطار هذا المقال .

وستكون قدرة الأم على حب أطفالها وفهمهم موضوعة على وجه الخصوص موضع الاختبار عندما يمرّون في مرحلة المراهقة . وتلك عندئذ هي المرحلة التي ينزع فيها الأطفال عادةً إلى أن ينصرفوا عن آبائهم ويتحرّرون من تعلّقهم بهم . والجهود التي يبذلها الأطفال ليجدوا دربهم صوب موضوعات حب جديدة هي سبب أوضاع يمكنها أن تكون عسيرة على الآباء . فإذا كانت الأم حنوناً ، فإن حبها سيبقى كاملاً ، وستكون قادرة على أن تبدو صبورة وفهيمة ، وسيكون باستطاعتها ، إذا اقتضت الضرورة ، أن تساعد أطفالها وأن تقدّم لهم النصائح وهي تتيح لهم في الوقت ذاته مع ذلك أن يتدبّروا مشكلاتهم بأنفسهم . ومن الممكن أن تكون قادرة على أن تتصرّف على هذا النحو دون أن تطلب لنفسها أموراً كثيرة . ولكن ذلك غير ممكن إلا إذا كانت قدرتها على الحب قد نمت بطريقة تتوحّد معاً توحداً قوياً بطفلها وبامرأة حكيمة تحتفظ بصورتها في ذهنها .

وستتحوّل أيضاً طبيعة علاقات أمٍّ بأطفالها عندما يكبرون ويصنعون حياتهم ويتحرّرون من الصلات القديمة ؛ وسيتجلّى حبها على نحو مختلف . ومن الممكن أن تكتشف الأم عندئذ أنها لم تعد تؤدي دوراً في حياتهم ذا أهمية ، ولكنها تستشعر السعادة كلما أبدت لهم حبها حينما يكونون بحاجة إليه . وسيكون لديها الانطباع بصورة لاشعورية أنها تقدّم لهم ضرباً من الأمن وأنها تظلّ دائماً أم الزمن الغابر التي كان ثديها يمنحهم كل إشباع وكانت تستجيب لحاجاتهم ورغباتهم . وفي هذا الوضع ، تكون الأم عندئذ قد توحّدت توحّداً تاماً بأمها المعوان ، التي لم يتوقّف تأثيرها الحامي أن يتجلّى في ذهنها . وتوحّدت في الوقت نفسه بأطفالها هي . والأمر في استيهامها شبيه بما لو أنها كانت لا تزال طفلاً وتشارك أطفالها حيازة أم طيّبة ومعوان . ويطابق لاشعور الأطفال على الأغلب لاشعور الأم . وسواء استعملوا هذه المؤونة من الحب المرصودة لهم أم لم يستعملوها ، فإنهم

يستمدّون على الغالب أمناً وتشجيعاً أعظمين من جرّاء كونهم يعلمون أن هذا الحب موجود .

ثامناً ـــ أن يكون المرء أباً

وعلى الرغم من أن دلالة الأطفال بالنسبة للرجل ليست بقدر دلالتهم بالنسبة للمرأة ، آخذين بالحسبان كل شيء ، فإنهم يؤدّون مع ذلك دوراً ذا أهمية في حياته ، وعلى وجه الخصوص إذا كان هو وزوجته يتفاهمان جيداً . وقد تكلمت سابقاً ، كي نعود إلى المصادر العميقة لهذه العلاقة ، عن الرضى الذي يستمدّه الرجل من منح امرأته طفلاً من حيث أن ذلك يعني أنه افتداء لرغباته السادية إزاء أمه وتجديد هذا الأم . وذلك ينمّي الرضى الواقعي الذي يستشعره الرجل وينجم عن إنجاب طفل وعن إشباع رغبات امرأته . يضاف إلى ذلك أن الرجل يشبع رغباته الأنثوية حين يشاطر امرأته لذة الأمومة ، وهو مصدر آخر للذة بالنسبة له . إنه كان يرغب ، وهو صبي صغير ، رغبة حادّة في أن يحمل أطفالاً كأمه ، وكانت هذه الرغبة تؤجّج شهوته إلى أن يسرق أطفالها . وبوسعه أن يمنح امرأته أطفالاً بوصفه رجلاً وبوسعه أن يراها سعيدة معهم ، وبوسعه إذن ، دون أن يشعر بالإثم ، أن يتوحّد بها عندما تحملهم وتغذّيهم . وعلى المنوال نفسه تجري الأمور في علاقته بأطفاله الأكبر سناً .

والحقيقة مع ذلك أنه يستمدّ إشباعات عديدة من جرّاء كونه **أباً طيّباً** بالنسبة لأطفاله . ورغبته في أن يحمي أطفاله ، رغبة تحرّضها الإثمية التي ترتبط بحياته الأسرية الأولى عندما كان طفلاً ، تتجلّى تجلياً تاماً . إنه يتوحّد مجدّداً ، بالأب الطيب ، سواء أكان أباه الحقيقي أم مثال الأب لديه . وقدرته الكبيرة على التوحّد بأطفاله ، في علاقته بهم ، هي أيضاً عنصر آخر من الإشباع ، ذلك أنه يشاطرهم فرحهم مشاطرة ذهنية . يضاف إلى ذلك أنه يعيش طفولته على نحو أكثر رضى

عيشة جديدة حينما يساعدهم في صعوباتهم ، وحينما يشجّع تطورهم .

وثمة جزء كبير مما قلته سابقاً عن علاقة الأم بأطفالها في المراحل المختلفة من تطورهم ينطبق على الأب أيضاً . فدوره مختلف عن دور الأم ، ولكن اتجاهاتهما متكاملة ، وإذا كان زواجهم قائماً على الحب والفهم (كما أفترض خلال هذه المناقشة كلها) ، فإن الزوج سعيد بالعلاقة بين زوجته وأطفالها ، كذلك يستشعر اللذة عندما يفهمهم ويساعدهم .

تاسعاً ـــ الصعوبات في العلاقات الأسرية

حياة أسرية منسجمة كل الانسجام كتلك التي أصفها ليست ، ونحن نعلم ، متواترة جداً . وذلك أمر تابع لمصادفة سعيدة ولبعض العوامل السيكولوجية ، وتابع ، في المستوى الأول ، لملكة حب نامية جداً لدى الشريكين . وثمة صعوبات من كل ضرب يمكنها أن تطرأ معاً على العلاقة بين المرأة وزوجها وعلى علاقاتهما بالأطفال . وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك .

فشخصية الطفل يمكنها أن لا تطابق أمنيات الأبوين . وبوسع كل من الشريكين ، بصورة لاشعورية ، أن يرغب في أن يشبه الطفل أخاً أو أختاً من الماضي . وهذه الأمنية لا يمكنها بالبداهة أن تتحقق لكلٍّ من الأبوين ـــ بل يمكنها أن لا تتحقق بالنسبة لواحد منهما . وإذا وُجدت ، بالإضافة إلى ذلك ، لدى شريك من الشريكين أو الشريكين معاً ، غيرة كبيرة من الإخوة والأخوات ومنافسة معهم ، فإن هذا الوضع يمكنه أن يتكرّر بمناسبة نجاحات أطفالهما هما وتطورهم . وثمة وضع آخر عسير ينشأ عندما يكون الوالدان طمّاعين ويأملان ، من خلال نجاح أطفالهما ، في اطمئنان خاص بشخصهما وفي تسكين مخاوفهما . وثمة ، من جهة أخرى ، بعض الأمهات اللواتي لا يمكنهن أن يحببن أطفالهن وأن

يشعرن بالسعادة أن يكون هؤلاء الأطفال لهن ، والسبب يكمن في أنهن يشعرن بالإثمية الكبيرة لحلولهن في استيهامهن محل أمهاتهن . وهؤلاء النسوة يمكنهن أن يبدين عاجزات حتى أن يعتنين ، هن أنفسهن ، بأطفالهن . ويتركنهم لعناية المرضعات أو الأشخاص الآخرين الذين سيمثّلون في لاشعورهن أمهاتهن ، أمهات يرجعن إليهن على هذا النحو أولئك الأطفال الذين تمنين أن يسرقنهم منهن . وهذا الخوف من حب الطفل ، الذي يوقع الاضطراب بالطبع في العلاقة معه ، قد يظهر لدى الرجال والنساء على حدّ سواء ويضرّ بالعلاقة المتبادلة بين الزوجين .

قلت إن الإثمية والحاجة إلى التعويض يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بعاطفة الحب . وإذا لم يكن النزاع الأول بين الحب والكره قد تمّ حلّه مع ذلك على نحو مرض ، أو إذا كانت الإثمية قوية جداً ، فإن ذلك يمكنه أن يقود إلى الانصراف عن أشخاص محبوبين وحتى إلى نبذهم . إنه الخوف ، في نهاية المطاف ، من أن الشخص المحبوب ـــ الأم في بداية الأمر ـــ يمكنه أن يموت بسبب الأذى الذي كان قد أُلحق به في الاستيهام ، وهذا الخوف هو الذي يجعل واقع التبعية له أمراً لا يُحتمل . وبوسعنا أن نلاحظ الرضى الذي يستمدّه الأطفال الصغار من نجاحاتهم الأولى ومن كل ما يجعل استقلالهم متنامياً . ولذلك أسباب كثيرة واضحة ، ولكن رغبة الطفل في أن يقلّل تعلّقه بأمه ، الشخص الذي له الأهمية الكبرى ، هي التي تكوّن الباعث العميق الهام . إن الأم ، في بداية الأمر ، هي التي جعلته يحيا ، واستجابت لجميع رغباته ، وحمته ومنحته الأمن . وهذا هو السبب الذي من أجله يتكوّن لدى الطفل انطباع مفاده أنها مصدر حياته وكل ما هو جيّد . وتصبح في الاستيهام ، بصورة لاشعورية ، غير منفصلة عنه . وسيستشعر موت الأم كموته الخاص . وعندما تكون هذه العواطف وهذه

الاستيهامات عنيفة جداً ، فإن التعلّق بالأشخاص المحبوبين يمكنه أن يصبح عبئاً مرهقاً .

وثمة أشخاص عديدون يهربون من هذه الصعوبات إذ يجعلون القدرة على الحب معتدلة ، أو **ينفونها** ، أو يقمعونها ، ويتجنّبون على وجه العموم تلك العواطف العنيفة . ويتجنّب آخرون أخطار الحب بنقله على نحو خاص من الناس إلى الأشياء . وهذا النقل ، نقل الحب إلى أشياء واهتمامات (سأتكلم عليها بصدد الحديث عن المكتشف والرجل الذي يصارع صعوبات الطبيعة) ، عنصر من عناصر النمو السوي . وهذا النقل إلى موضوعات ليست موضوعات بشرية أصبح مع ذلك ، لدى بعض الأشخاص ، نمطاً رئيساً من أنماط حلّ النزاعات أو الإفلات منها بالحري . ونحن نعرف جميعنا هؤلاء الأشخاص الذين يحبون الحيوانات حباً جمّاً ، وأصحاب المجموعات المشبوبي العاطفة هؤلاء ، وأولئك العلماء ، وهؤلاء الفنانين ، إلخ ، القادرين على أن يحبوا حباً كبيراً تلك الموضوعات التي تعنيهم أو العمل الذي اختاروه ، والقادرين غالباً على التضحية من أجلها ، ولكنهم ليس لديهم سوى قليل من الاهتمام والحب يقدّمانهما إلى أمثالهم من البشر .

وثمة تطور مختلف كل الاختلاف يستقرّ لدى أولئك الذين يصبحون تابعين تبعية تامة للأشخاص الذين يتعلّقون بهم تعلّقاً شديداً جداً . فالخوف اللاشعوري لديهم من أن يروا الشخص المحبوب يموت يمكنه أن يقود إلى تبعية كبيرة جداً . والرغبة في التملّك ، التي تتنامى بفعل هذا الخوف ، تؤدي إلى حد كبير دوراً في هذا الاتجاه بوصفها عنصراً من عناصره ، وتتجلّى في محاولة استخدام الشخص المتبوع بقدر ما يكون استخدامه ممكناً . وثمة عنصر آخر من عناصر هذا الاتجاه ذي التبعية الكبيرة جداً يكمن في نبذ المسؤوليات : فالمرء

يحمّل الآخر مسؤولية أعماله وحتى مسؤولية آرائه وأفكاره في بعض الأحيان (وهذا سبب من الأسباب التي تدعو الناس إلى قبول آراء القائد السياسي دون نقدها ويطيعون أوامره طاعة عمياء). والحب ، لدى هذه الموجودات البشرية ذات التبعية الكبيرة ، يستشعرونه أنه ضروري جداً بوصفه دعماً ضد الإثمية وشتى المخاوف . فعلى الشخص المحبوب أن يبرهن لهم دون انقطاع ، بإبداء عواطف الحب ، على أنهم ليسوا سيئين ولا عدوانيين وأن دوافع التدمير لديهم لم يكن لها عواقب .

وصلات من هذا النوع ، قوية جداً ، تثير الاضطراب في علاقة أم بطفلها على وجه الخصوص . ولاتجاه الأم إزاء طفلها ، كما أشرت إلى ذلك من قبلُ ، كثير من النقاط المشتركة مع العاطفة التي كانت تكابدها ، عندما كانت طفلاً ، لأمها هي . ونحن نعلم سابقاً أن هذه العلاقة الأولى كانت تتميّز بالنزاع بين الحب والكره . وهذه الرغبات اللاشعورية في الموت التي كانت البنت الصغيرة تكابدها إزاء أمها تُنقل إلى طفلها عندما تصبح أماً . وحدّة هذه الرغبات تتنامى بفعل التعارض الذي يستشعره الطفل إزاء إخوته وأخواته . وإذا كان لنزاع غير محلول من النزاعات في الماضي نتيجة مفادها أن الأم تشعر بأنها آثمة جداً في علاقتها بطفلها ، فإن من الممكن أن تدفعها حاجتها العنيفة إلى حب هذا الطفل إلى أن تستخدم وسائل مختلفة لتجتذبه اجتذاباً قوياً أو لتجعله تابعاً لها . ومن الممكن أيضاً أن تتفانى في سبيل طفلها تفانياً كبيراً وتجعل منه مركز حياتها كلها .

ولندرس الآن اتجاهاً نفسياً مختلفاً جداً ، ولكن لنقتصر على أن ندرس جوانبه الأساسية : الغدر (ضد الوفاء « م ») . ولأشكال الغدر ومظاهره المختلفة جميعها (والغدر ناجم عن الدروب الأكثر تنوّعاً من النمو ، وهو يعبّر لدى بعض الأشخاص عن الحب ، ويعبّر لدى آخرين عن الكره ، وجميع الدرجات الوسطى ممكنة) عامل مشترك : واقع الانصراف على نحو متكرّر عن شخص

(محبوب)، واقع سببه على نحو جزئي الخوف من التبعية . إني وجدت أن النموذج الدونجواني يلاحقه ، في أعماق نفسه ، ذلك الخوف من أن يرى الأشخاص المحبوبين يموتون ، وأن هذا الخوف سيظهر ويعبّر عن نفسه في العواطف الاكتئابية وفي الآلام النفسية الكبيرة لو أن الدون جوان لم يكن على وجه الضبط قد كوّن لنفسه دفاعاً خاصاً ضد هذه العواطف وهذه الآلام : أي الغدر لديه . ولا يكفّ على هذا النحو يبرهن لنفسه على أن الموضوع **الوحيد** المحبوب جداً (في الأصل أمه التي كان يخشى أن تموت لأنه كان لديه الانطباع الذي مفاده أن حبه لها كان حب تملّك وتدمير) لم يكن ، في نهاية المطاف ، أمراً لا غنى عنه له ، بالنظر إلى أن بوسعه دائماً أن يجد امرأة أخرى يكابد من أجلها عواطف مشبوبة ، ولكنها عواطف سطحية . وعلى عكس أولئك الذين يقودهم خوف من أن يموت الشخص المحبوب إلى أن ينبذوا هذا الشخص أو أن يقمعوا الحب وينفوه ، فإن الدون جوان عاجز لأسباب شتى عن أن يتصرّف على المنوال نفسه . وثمة تسوية لاشعورية تتجلّى مع ذلك في اتجاهه إزاء النساء . فهو ينصرف بصورة لاشعورية ، حين يتخلّى عن بعض منهن وينبذهن ، عن أمه ويحميها من رغباته الخطرة ويتحرّر من التبعية المؤلمة لها . ويحتفظ في لاشعوره ، حين يتّجه صوب أخريات ويمنحهن لذة وحباً ، بالأم المحبوبة أو يبعثها مجدّداً .

إنه ، في الواقع ، ينتقل من امرأة إلى أخرى ، ذلك أن الأخرى سرعان ما تنتهي إلى أن تمثّل أمه . وعلى هذا النحو يحلّ محل الموضوع الأول لحبه تعاقبٌ من الموضوعات المختلفة . وهو ، في استيهامه اللاشعوري ، يبعث أمه مجدّداً أو يشفيها بالإشباعات الجنسية (التي يمنحها نساء أخريات)، ذلك أن ما يستشعره خطراً من جنسيته ليس سوى **جزء** منها فقط . أما الجزء الآخر ، فإنه يُعنى به ويجعلها سعيداً . وهذا الاتجاه المزدوج عنصر من تسوية لاشعورية كانت عاقبتها الغدر لديه ، وهذا هو أحد العوامل لنمطه الخاص في النمو .

ويقودنا ذلك إلى نموذج آخر من الصعوبات في علاقات الحب . فقد يحدث أن يدّخر رجل لامرأة واحدة ، امرأته ، عواطف الحب والحنان والحماية ، ولكنه يكون عاجزاً عن أن يستمدّ من هذه العلاقة استمتاعاً جنسياً ، ويكون عليه إما أن يكبت رغباته الجنسية وإما أن ينقلها إلى امرأة أخرى . والمخاوف من طبيعة التدمير التي تتّسم بها جنسيته ، والمخاوف من أبيه الذي يعتبره منافساً ، وضرب من الإثمية ذات العلاقة بهذه المخاوف ، هي أسباب عميقة حتى يتدخّل لون من الانفصال بين عواطف الحنان والعواطف التي هي جنسية بصورة نوعية . ينبغي للمرأة المحبوبة وذات الاعتبار في نظره ، تلك المرأة التي تمثّل أمه ، أن تكون في منجىً من جنسيته التي يستشعرها خطرة في استيهامه .

عاشراً ــ اختيار الشريك في الحب

يبيّن التحليل النفسي أن ثمة أسباباً لاشعورية عميقة تؤدي دوراً في اختيار الشريك في الحب وتجعل شخصين معيّنين يستشعران انجذاباً متبادلاً ويحسّان باشباع متبادل . وعواطف الرجل تجاه امرأة تتأثّر دائماًبتعلّقه الأول بأمه . ولكن هذه الحالة ستكون ، هنا أيضاً ، لاشعورية على وجه التقريب ومظاهرها يمكنها أن تكون مقنّعة جداً . وقد يحدث ، في الحب ، أن يختار الرجل شريكته امرأة لها صفات تناقض صفات أمه كل التناقض . وعلى الرغم من أن مظهر المرأة المحبوبة قد يكون مختلفاً كل الاختلاف عن مظهر أمه ، فإن صوتها أو بعض العناصر من شخصيتها يطابقان مع ذلك انطباعاته الأولى عن أمه وسيمثّلان بالنسبة له فتنة خاصة . أو إنه سيختار أيضاً شريكة لا تشبهها على الاطلاق ، لأنه على وجه الضبط سيرغب في أن يهرب من تعلّق بها شديد جداً .

وتحتلّ على الأغلب ، في الاستيهامات الجنسية وعواطف الحب لدى الصبي الذي يكبر ، أخت أو ابنة عم محلّ الأم . ومن الواضح أن اتجاهاً قائماً على مثل

هذه العواطف سيختلف عن اتجاه رجل يبحث على وجه الخصوص عن صورة الأم في امرأة ، على الرغم من أن رجلاً يتأثّر اختياره بعواطف إزاء أخته يمكنه أيضاً أن يبحث عن بعض السمات الخاصة بأمه لدى شريكته . والتأثير الأول الذي يمارسه مختلف الأشخاص الذين يكوّنون وسط الطفل يخلق تنوّعاً كبيراً من الإمكانات : وبهذا الصدد ، فإن ممرّضة ، أو عمة ، أو جدة ، يمكنهن أن يؤدّين دوراً ذا أهمية . ومن الطبيعي أن يكون علينا ، في دراسة التأثير الذي تمارسه العلاقات الأولى في اختيار لاحق ، أن لا ننسى أن الانطباع الذي حصل عليه الطفل من الشخص المحبوب في ذلك الزمن ، وأن الاستيهامات المرتبطة بهذه الانطباعات ، هما اللذان يرغب الطفل في أن يكتشفهما مجدّداً فيا بعد في علاقته الغرامية . يضاف إلى ذلك أن اللاشعور يجري ارتباطات على قواعد تختلف عن قواعد الشعور . وهذا هو السبب الذي من أجله تتآزر انطباعات شتى منسيّة كلياً ـــ مكبوتة ـــ لدى فرد معيّن لتجعل شخصاً أكثر جاذبية من شخص آخر ، من الناحية الجنسية ومن النواحي الأخرى .

وثمة عوامل مماثلة تتدخّل في الاختيار الذي تجريه المرأة . فالانطباع الذي يحدثه الأب ، وعواطفها تجاهه ، وإعجابها ، وثقتها به ، يمكنها أن تؤدي دوراً غالباً في اختيارها شريكاً في الحب . وحبها الأول لأبيها يمكنه مع ذلك أن يكون قد تزعزع . وربما انصرفت عنه بسبب نزاعات عنيفة جداً أو لأنه خيّب أملها كثيراً . فاستطاع أخ ، أو ابن عم ، أو رفيق ، أن يتخذوا في ناظريها كثيراً من الأهمية ، واستطاعت أن تستشعر بالنسبة لهم رغبات واستيهامات جنسية ، وأن تستشعر على حدّ سواء عواطف الأمومة . وستبحث عندئذ ، بدلاً من شريك من النموذج الأبوي ، عن حبيب أو زوج يطابق هذا الصورة ، صورة أخ . ويتوافق لاشعورا الشريكين في الحب في علاقة غرامية ناجحة . وفي حالة امرأة حنون حنان أم بالحري ، باحثة عن شريك يشبه أخاها ، ستكون استيهامات الرجل ورغباته

مناسبة إذا كان يبحث عن امرأة حنون حنان أم . وإذا كانت المرأة متعلّقة بأبيها كثيراً ، فإنها ستختار اختياراً لاشعورياً رجلاً يحتاج إلى امرأة يؤدي تجاهها دور أب طيّب .

وعلى الرغم من أن العلاقات الغرامية في حياة الرشد تستمدّ أسسها من أوضاع وجدانية قديمة ذات علاقة بالأبوين والإخوة والأخوات ، فإن العلاقات الجديدة لن تكرّر الأوضاع الأسرية في الزمن الماضي بالضرورة . فثمة ذكريات ، وعواطف ، واستيهامات لاشعورية ، تندمج على نحو خفيّ بالصداقة الجديدة أو بالعلاقة الغرامية الجديدة . وكثير من العوامل تتدخّل في السيرورة المعقّدة لتكوّن صداقة أو علاقة حب ، إلى جانب تأثيرات أولى . والعلاقات الجديدة الراشدة تحتوي دائماً على عناصر جديدة ناجمة عن الوضع الجديد ، أي عن ظروف الناس الذين نتصل بهم وشخصيتهم ، وناجمة أيضاً عن استجاباتهم لحاجاتنا الوجدانية ولاهتماماتنا العملية ، اهتمامات أشخاص كبار .

حادي عشر ــ اكتساب الاستقلال

تكلمت بصورة رئيسة ، حتى الآن ، على علاقات حميمة بين أشخاص . ونحن نتوصّل الآن إلى مظاهر الحب ، مظاهره الأعم ، وإلى النحو الذي يندمج عليه باهتماماتنا ونشاطاتنا من كل ضرب . فالتعلّق البدئي لدى الطفل بثدي أمه وحليبها أساس كل علاقات الحب في الحياة . وإذا لم ننظر إلى حليب الأم إلا على أنه غذاء سليم ومناسب ، فإن بوسعنا أن نستنتج من ذلك أن بالإمكان على نحو سهل أن يحلّ محلّه غذاء آخر مناسب أيضاً . ولكن حليب الأم ، الذي يسكّن بادىء ذي بدء تشنّجات الجوع لدى الرضيع ويتناوله بهذا الثدي الذي يتوصّل هذا الرضيع إلى أن يحبه حباً متعاظماً ، يكتسب بالنسبة له قيمة وجدانية لا يمكننا أن نقدّرها تقديراً جيداً . والثدي والحليب ، اللذان يشبعان في البدء غريزة المحافظة

على البقاء والغريزة الجنسية معاً ، ينتهيان إلى أن يمثّلا الحب واللذة والأمن في ذهنه . فأن نحدّد إلى أي حدّ يكون فيه الرضيع قادراً **من الناحية السيكولوجية** أن يستبدل بالحليب أغذية أخرى ، ذلك أمر يصبح إذن مسألة ذات أهمية رئيسة . وبوسع الأم أن تنجح مع كثير أو قليل من الصعوبات في تعويد الطفل على أغذية أخرى ، ولكن من الممكن ، حتى في هذه الحالة ، أن لا يتخلّى الرضيع عن رغبته الحادة في الغذاء الأول . ومن الممكن أن لا يتجاوز الضغينة والكره اللذين كابدهما عندما كان حليب الثدي قد سحب منه ، أو أنه لا يكون قد تكيّف على نحو واقعي مع هذا الإحباط . وربما سيبين عاجزاً ، إذا كانت هذه هي الحالة ، عن التكيّف حقاً مع الإحباطات الأخرى التي ستلي في حياته .

وإذا كنا نتوصّل باكتشاف اللاشعور إلى أن نفهم قوة هذا التعلّق الأول بالأم وعمقه وبالغذاء الذي تمنحه ، وأن نفهم الحدّة التي يستمرّ بها هذا التعلّق في لاشعور الراشد ، فإن بوسعنا عندئذ أن نتساءل كيف يتوصّل الطفل إلى أن ينفصل انفصالاً متنامياً عن أمه ليكتسب ضرباً من الاستقلال اكتساباً تدريجياً . والحقيقة أن ثمة ، لدى الرضيع الصغير ، اهتماماً قوياً بالموضوعات التي تحيط به يتجلّى منذ الآن ، وفضولاً متعاظماً ، وسروراً بمعرفة الأشخاص والأشياء الجديدة ، ولذة في إنجاز بعض الأعمال ، وكل الأشياء التي تبدو أنها تتيح للطفل أن يجد مجدّداً موضوعات حب واهتمام . ولكن هذه الوقائع لا تشرح شرحاً كلياً استعداد الطفل للانفصال عن أمه لأنه ، في لاشعوره ، متعلّق بها تعلّقاً شديداً جداً . وطبيعة هذا التعلّق القوي جداً هي نفسها التي ستدفعه مع ذلك إلى أن يبتعد عنها ، لأن هذا التعلّق (وبالنظر إلى أن الشراهة المحبَطة والكره أمران محتومان) سيولّد الخوف من فقدان هذا الشخص ذي الأهمية الكلية ، وسيولّد الخوف ، بالتالي ، من تبعيته له . فثمة إذن ، في لاشعور الطفل ، ميل إلى أن يهجر أمه ، ميل توازنه رغبة ملحّة في أن يحتفظ بها إلى الأبد . ولهذه العواطف

المتناقضة التي يعانيها الطفل ، في حين أن نموه الوجداني والفكري يتيح له ، من جهــة أخرى ، أن يجد موضـوعات اهتمام أخرى ولذة ، نتيجـة مفـادها ظهور استعداد لتحويل الحب ولإحلال أشخاص آخرين وأشياء أخرى محلّ الشخص الأول المحبوب . ولأن الطفل يعيش حباً كبيراً مع أمه إنما يوجد لديه مثل هذا الاحتيـاطي من الحب لضروب لاحقة من التعلّق . وهذه السـيرورة من انتقال الحب ذات أهميـة كبرى لنمو الشخصيـة وللعـلاقات الإنســانية وحتى ، يمكننا القول ، لنمو الثقافة والحضارة معاً .

وبالتوازي مع هذه السيرورة من انتقال الحب (والكره) الذي يكابده الطفل للأم إلى أشخــاص آخرين وأشيــاء أخرى ، وذلك أمر يفضي إلى توزيع هاتين العاطفتين على العالم الواسع ، ثمة نحو آخر لإبطال هذه الميول الأولى . فالشهوانية المعاشة في العلاقة بين الطفل وثدي الأم تتحوّل إلى حب لكلية شخصها ، حب ينصهر ، في بدايته الأولى ، مع الرغبة الجنسية . والتحليل النفسي جذب الانتباه إلى واقع مفاده أن الانفعالات التي نستشعرها للأبوين والإخوة والأخوات ليست موجودة لدى الراشـد فحسب ، ولكن بالوسع ملاحظتها لدى أطفال صغار . وقوة هذه الانفعالات الجنسية وأهميتها الأساسية لا يمكنهما مع ذلك أن تُفهما إلا بالكشف عن اللاشـعور .

ونحن نعلم الآن أن الرغبات الجنسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدوافع واستيهامات عدوانية ، وترتبط أيضاً بالإثمية والخوف من رؤية الأشخاص المحبوبين يموتون . كل ذلك يساهم ، لدى الطفل ، في إضعاف تعلّقه بأبويه . ولديه أيضاً ميل إلى أن يكبت هذه الرغبات الجنسية التي تصبح لاشـعورية ، ومطمورة على وجه التقريب في أعماق النفس . وتفقد الدوافع الجنسية أيضاً صلاتها مع الأشخاص المحبوبين الأوائل ، وينتهي الطفل على هذا النحو إلى أن يكون قادراً على أن يحب بعض الأشخاص بطريقة تسود فيها الصداقة .

وتؤلف الآليات السيكولوجية التي أتيت على وصفها ــ إحلال عدة أشخاص محبوبين محل شخص واحد محبوب ، وضرب من تفكّك الرغبات الجنسية وعواطف الحنان ، وكبت الدوافع والرغبات الجنسية ــ جزءاً متمّماً من قدرة الطفل على أن يقيم العلاقات الأوسع . وإنه لأمر جوهري مع ذلك ، لنجاح نمو كامل ، أن لا يكون كبت الرغبات الجنسية ذات العلاقة بالأشخاص المحبوبين الأوائل عنيفاً جداً[1] ، وأن لا يكون انتقال العواطف التي يستشعرها الطفل لأبويه صوب أشخاص آخرين انتقالاً تاماً جداً . فإذا ظل مقدار كاف من الحب جاهزاً للذين هم أقرب إلى الطفل ، وإذا كانت الرغبات الجنسية العائدة إليهم ليست مكبوتة بصورة قوية جداً ، فإن الحب والرغبات الجنسية يمكنهما أن يُعاشا فيما بعدُ مجدّداً في الحياة . ويمكنهما أن ينصهرا انصهاراً جديداً ويؤديا عندئذ دوراً حيوياً في علاقات حب مرْضية . وثمة ، لدى شخصية تطورت تطوراً ناجحاً بصورة حقيقية ، مقدار معيّن من الحب للأبوين يظلّ جاهزاً . وينضاف إلى هذا الحب حب الآخرين وحب الأشياء . وليست المسألة مع ذلك مسألة مجرد امتداد للحب ، وقد ألححت على هذا الأمر ، بل المسألة ضرب من انتشار العواطف الذي يخفّف عبء نزاعات الطفل وإثميته ، المرتبطتين بتعلّقه بالأشخاص الأوائل المحبوبين وتبعيته لهم .

ولا تزول نزاعاته لمجرّد توجّهه صوب أشخاص آخرين ، ذلك أنه ينقلها من الأشخاص المحبوبين الأوائل ، الأكثر أهمية ، إلى موضوعات حب أخرى

---

(١) ــ تظلّ استيهاماتٌ ورغبات جنسية نشيطة في اللاشعور وتتجلّى إلى حدّ معيّن في سلوك الطفل ، وفي ألعابه ونشاطات أخرى . وإذا كان الكبت عنيفاً جداً ، وإذا ظلّت الاستيهامات والرغبات مطمورة بعمق كبير ولا يمكنها أن تتجلّى ، فإن ذلك يمكنه أن يترتّب عليه نتيجة مفادها لا أن يكفّ بقوةٍ عمل الخيال لدى الطفل فحسب (ويكفّ بصورة موازية نشاطات أخرى من النوع نفسه) ، ولكنه يعوق أيضاً حياته الجنسية فيما بعد .

(وموضوعات كره) تمثّل تعلّقاته الأولى تمثيلاً جزئياً . وهذا التحويل يُعاش على نحو أقلّ حدة . ولأن عواطفه تجاه هؤلاء الأشخاص الجديدين أقل حدة ، لهذا السبب على وجه الضبط ، فإن حاجته إلى التعويض (التي يمكنها أن تجد نفسها وقد عاقتها إثمية قوية جداً) يمكنها الآن أن تتجلّى تجلياً أكثر كمالاً .

ومن المعروف جيداً أن وجود إخوة للطفل وأخوات يساهم في نموه . ويتيح له كونه ترعرع معهم أن ينفصل على نحو أفضل عن أبويه وأن يقيم مع إخوته وأخواته علاقة ذات سمة جديدة . ونحن نعلم مع ذلك أنه يستشعر تجاههم ، مع أنه يحبهم في الوقت نفسه ، عواطف عنيفة من المنافسة والكره والغيرة . ولهذا السبب ، فإن علاقات بأبناء الأعمام ، ورفاق اللعب ، وأطفال آخرين من خارج الوضع الأسري ، تتيح له علاقات مختلفة عن تلك التي يقيمها مع الإخوة والأخوات . وستكون هذه العلاقات المختلفة ، هنا أيضاً ، ذات أهمية كبيرة لإقامة علاقات اجتماعية لاحقة .

ثاني عشر ــ العلاقات في المدرسة

المدرسة توفّر المناسبة لتنمية التجربة المكتسبة من قبل في العلاقات مع الأشخاص . وهي بهذا المعنى تكوّن حقل تجريب جديد . وبوسع الطفل أن يجد ، بين عدد من الرفاق كبير جداً ، رفيقاً أو اثنين أو عدة رفاق يناسبون شخصيته على نحو أفضل من إخوته وأخواته . وربما تمنحه الصداقات الجديدة ، بالإضافة إلى الاشباعات التي تؤمّنها ، تلك المناسبة لإعادة النظر في علاقاته الأولى بإخوته وأخواته الذين لم يستطيعوا إرضاءه ، ولتحسين هذه العلاقات . ومن الممكن أن يكون عدوانياً حقاً ، ومثال ذلك تجاه أخ أضعف منه أو أصغر ، أو من الممكن أن تكون إثمية لاشعورية ناجمة عن الكره والغيرة قد أثارت الاضطراب في علاقاته بهم على نحو يمكنه أن يستمرّ في حياة الرشد . وهذا الوضع ، غير

المَرْضي ، يمكنه أن يكون له فيما بعدُ نتائج عميقة فيما يخصّ اتجاهاته الوجدانية إزاء الناس على وجه العموم . ونحن نعلم أن بعض الأطفال عاجزون عن اجتذاب الأصدقاء في المدرسة ، وذلك بسبب كونهم ينقلون نزاعاتهم القديمة إلى وسط جديد . وعلى العكس ، يُلاحظ غالباً أن العلاقة بالإخوة والأخوات تتحسّن لدى أولئك الذين يمكنهم أن ينفصلوا انفصالاً كافياً عن تعقيداتهم الوجدانية الأولى ويمكنهم اجتذاب الأصدقاء في المدرسة . وتبرهن الصداقات الجديدة للطفل على أنه قادر على أن يحب وأن يكون محبوباً ، وعلى أن الحب والطيبة **موجودان** ، وذلك أمر يحسّ به إحساساً لاشعورياً أنه البرهان على أن بوسعه التعويض عن الضرر الذي ألحقه بالآخرين في الخيال أو الواقع . وعلى هذا النحو إنما تساهم الصداقات الجديدة في حلّ الصعوبات الوجدانية الأقدم دون أن يكون الشخص شاعراً بالطبيعة الحقيقية لهذه الاضطرابات الأولى أو بالطريقة التي بها تكون هذه الاضطرابات في سبيلها إلى الحلّ . وتجد الميول إلى التعويض ، بهذه الوسائل جميعها ، ضرباً من حقل التعبير ، وتضعف الإثمية ، وتتنامى الثقة بالذات وبالآخرين .

والمدرسة توفّر الفرصة أيضاً لانفصال بين الحب والكره أكبر من الانفصال الذي كان ممكناً في الدائرة الأسرية الصغيرة . وفي المدرسة ، من الممكن أن يكره الطفل بعض الأطفال أو أن لا يحبهم بكل بساطة وأن يحب آخرين . وعلى هذا النحو ، فإن العواطف المكبوتة ، عواطف الحب والكره (مكبوتة بسبب النزاع الخاص بكون الطفل يكره شخصاً محبوباً)، يمكنها أن تتجلّى في دروب مقبولة على وجه التقريب من الناحية الاجتماعية . ويتجمّع الأطفال بعضهم مع بعض بشتى الطرق ويضعون بعض القواعد ذات العلاقة بالحدود التي سيعبّرون في كنفها عن كرههم للآخرين أو عن نفورهم منهم . والألعاب وروح الفريق التي تنشّطها هما ، في هذه التحالفات وتجلّي العدوانية ، عامل من عوامل الضبط .

والغيرة التي يسبّبها الأستاذ ، والمنافسة ليفوز الطفل باعتباره وحبه ، يعيشهما ، على الرغم من أن بإمكانهما أن يكونا قويتين جداً ، في وضع يختلف عن وضع الحياة الأسرية . ولا يحتلّ الأساتذة في عواطف الطفل ، على وجه العموم ، مكاناً كالمكان الذي يحتلّه الأبوان . إنهم يوظّفون في الوضع المدرسي انفعالات أقل مما يوظفونه في الوضع الأسري . يضاف إلى ذلك أن عواطفهم موزّعة على أطفال عديدين .

ثالث عشر ــ العلاقات في المراهقة

عندما يصبح الطفل مراهقاً ، يتجلّى ميله إلى الافتتان ببطل في العلاقة ببعض الأساتذة ، في حين أن أساتذة آخرين قد يكونون غير محبوبين ، مقيتين أو محتقرين . وذلك مثال آخر على آلية انفصال الكره عن الحب ، آلية تؤمّن سكينة ؛ والسبب في وقت واحد أن الشخص « الجيّد » موضوع موضع الحماية وأنه لأمر سارّ أن نمقت أحداً يستحقّ ، في ذهننا ، أن يكون مقيتاً . والأب المحبوب والمكروه ، والأم المحبوبة والمكروهة هما ، في الأصل ، كما قلت سابقاً ، موضوعا الإعجاب والكره والتعديل من قيمتهما في وقت واحد . ولكن هذه العواطف المزيج التي تتصف ، كما نعلم ، بأنها أشدّ تناقضاً وإرهاقاً من أن يتحمّلها ذهن الطفل وستكون ولا شك مكبوحة ومطمورة ، تتجلّى جزئياً في علاقاته بالأشخاص الآخرين ، كالممرضات ، والعمات ، والأعمام ، ومختلف الأقارب . وكثير من الأطفال يُظهرون فيما بعد ، خلال المراهقة ، ميلاً قوياً إلى الانفصال عن آبائهم للسبب الأساسي الذي مفاده أن الرغبات الجنسية والنزاعات ذات العلاقة بالآباء تستعيد قوتها . وتُعاش مجدّداً عاطفتا المنافسة والكره ، العاطفتان الأوليان ، ضد الأب أو الأم وفق الحالة ، وتُعانيان في كل قوتهما ، على الرغم من أن السبب الجنسي لهما يظلّ لاشعورياً . ويميل الفتيان إلى أن يكونوا عدوانيين جداً مع آبائهم

ومع الأشخاص الآخرين الذين ينسجمون معهم ، كالخدم ، والأستاذ الضعيف أو رفاق المدرسة المحبوبين قليلاً . وعندما يصبح الكره مع ذلك قوياً بهذا القدر ، فإن ضرورة المحافظة على الجودة والحب ، في الداخل والخارج ، تصبح بالحري ملحّة . فالفتى العدواني مدفوع إذن إلى البحث عن أشخاص يمكنه أن يحترمهم وينسب الكمال إليهم . والأساتذة الذين يعجب بهم يمكنهم أن يخدموا هذا الهدف . وثمة أمن داخلي ينجم عن هذه العواطف ، عواطف الحب والإعجاب والثقة بهم ، والسبب أن هذه العواطف ، بين أسباب أخرى ، تبدو أنها تؤكد ، في اللاشعور ، وجود آباء طيّبين وعلاقة حب معهم . وتنفي هذه العواطف أهمية الكره ، والحصر ، والإثمية ، التي تصبح ، في هذه المرحلة من الحياة ، عنيفة جداً . وثمة ، بالطبع ، أطفال يستمرّون في حب آبائهم والإعجاب بهم في حين أنهم يمرّون في هذه الصعوبات ، ولكنهم نادرون بالحري . وأعتقد أن ما قلته يمكنه أن يشرح بعض الشرح ذلك المكان الخاص الذي تحتلّه على وجه العموم بعض الشخصيات التي يُنسب إليها الكمال في ذهن الناس : رجال ونساء أصحاب شهرة ، مؤلفين ، أبطال رياضة ، مغامرين ، شخصيات خيالية مأخوذة من الأدب . وصوب هؤلاء الأشخاص يتّجه الحب والإعجاب ، عاطفتان لولاهما لاتّخذت الأشياء جميعها صورة الكره وبدت عارية من الحب . وتلك حالة محسوسة على أنها خطرة على الذات والآخرين .

وإضفاء الكمال على بعض الأشخاص يرافق الكره المتجلّي للآخرين الذين تزيّنهم الألوان الأكثر قتامة . وذلك ينطبق بصورة خاصة على شخوص خيالية ، ومثال هذه الشخوص بعض النماذج من الخبثاء في الأفلام والأدب ، أو على أشخاص موجودين بالفعل ، ولكنهم ليس لهم صلات مع المراهق ، كالقادة السياسيين من الحزب المعارض . إنه لأقل خطراً (أقل خطراً على المراهقين وعلينا نحن) أن يكرهوا هذه الشخصيات التي تكون إما خيالية وإما بعيدة ، من أن

يكرهوا أولئك الذين هم أقرب إلينا . وذلك ينطبق أيضاً ، إلى حدّ معيّن ، على الكره للأساتذة والمديرين ، لأن الانضباط العام في المدرسة والوضع في ذاته ينزعان إلى أن يخلقا حاجزاً بين التلميذ والأستاذ أكبر من الحاجز الموجود بين الأب وأبيه بصورة عامة .

ولهذا الانشطار أيضاً بين الحب والكره إزاء أشخاص ليسوا قريبين منا هدف مفاده أن يحمي الأشخاص المحبوبين حماية أفضل في الواقع والذهن . وليس الأشخاص المحبوبون ، لهذا السبب ، بعيدين عنا ومنيعين من الناحية المادية فحسب ، ولكن الانقسام بين اتجاهي الحب والكره يشجّع الانطباع الذي مفاده أن بالإمكان المحافظة على الحب دون أن تمسّ حرمته . وتولّد القدرة على الحب أمناً يرتبط ، في اللاشعور ، ارتباطاً وثيقاً بعاطفة حماية الأشخاص المحبوبين والامتناع عن إيقاع الأذى بهم . ويبدو أن الاعتقاد اللاشعوري يستقرّ على النحو التالي : بوسعي أن أحتفظ ببعض الأشخاص المحبوبين دون مسّ بهم ، وبالتالي لم أُوقع الأذى فعلاً بأي من الأشخاص الذين أحبهم ، وبوسعي أن أحتفظ بهم جميعهم في نفسي إلى الأبد . وصورة الآباء المحبوبين ، في نهاية المطاف ، محفوظة في اللاشعور على أنها أثمن ما نملك ، ذلك أنها تحمي مالكها من الألم الناجم عن أسى مطلق .

رابع عشر ـــ إقامة الصداقات

صداقات الطفل الأولى تتبدّل خلال المراهقة . فقوة الدوافع والعواطف ، التي تميّز هذه المرحلة من الحياة تميزاً كبيراً ، تثير لدى الشبيبة ، وعلى وجه الخصوص لدى من هم من الجنس نفسه ، صداقات شديدة جداً . وثمة ميول وعواطف جنسية مثلية لاشعورية تكمن في قاعدة هذه العلاقات وتقود على الأغلب إلى نشاطات جنسية مثلية فعلية . وتكوّن هذه الصلات ، بصورة جزئية ، مهرباً من

الانجذاب إلى الجنس الآخر الذي يصعب التآلف معه جداً على الغالب ، في هذا العمر ، لأسباب مختلفة داخلية وخارجية . أما الأسباب الداخلية ، فإن الرغبات والاستيهامات ، في حالة الصبي ، لا تزال ذات علاقة وثيقة بأمه واخوته ، والمعركة التي يشنّها للانصراف عنهن ولإيجاد موضوعات حب جديدة هي في ذروتها . والدوافع صوب الجنس الآخر ، لدى الصبيان والبنات معاً في هذا العمر ، يستشعرونها وكأنها مكتظّة بالأخطار بحيث أن الانجذاب صوب الأشخاص من الجنس نفسه ينزع إلى الاحتدام . فالحب ، والإعجاب ، والتودّد ، التي يمكنها أن تدخل في هذه الصداقات ، هي أيضاً ، كما قلت سابقاً ، ضمان ضد الكره . ولهذه الأسباب المختلفة إنما يتشبّث هؤلاء المراهقون تشبثاً أكبر بهذه العلاقات . وفي هذه المرحلة من النمو ، تؤدّي الميول الجنسية المثلية المتعاظمة ، سواء أكانت شعورية أم لاشعورية ، دوراً كبيراً أيضاً في عاطفة التودّد الموجّهة إلى الأساتذة من الجنس نفسه . وليست الصداقات ، كما نعلم ، مستقرّة على الأغلب خلال المراهقة . وثمة سبب لذلك يكمن في قوة الانفعالات الجنسية (الشعورية واللاشعورية) التي تندمج بهذه الصداقات وتثير الاضطراب فيها . فالمراهق لا يزال غير متحرّر كل التحرر من الصلات الوجدانية القوية لطفولته ولا تزال هذه الصلات الوجدانية تثيره أكثر مما يعتقد .

خامس عشر ـ الصداقات لدى الراشد

على الرغم من أن الميول الجنسية المثلية اللاشعورية تؤدي ، لدى الراشد ، دوراً في الصداقات بين أشخاص من جنس واحد ، فإنها لخاصة من خصائص الصداقة ـ خاصة متميّزة عن علاقة حب جنسية مثلية[1] ـ أن يكون ممكناً فصل المودة عن الجنسية بصورة جزئية . وتنتقل الجنسية إلى المستوى الخلفي

(١) ـ موضوع علاقات الحب الجنسية المثلية موضوع واسع جدا ومعقّد جداً . ويلزمني من =

وتختفي من هذه العلاقات لأسباب عملية ، على الرغم من أن بإمكانها أن تظلّ إلى حدّ معيّن نشيطة في اللاشعور . وهذا الفصل ، فصل المودة عن الجنسية ، يمكنه أن يتدخّل أيضاً في الصداقات بين الرجال والنساء ، ولكنني لن أتكلم هنا إلا على الصداقة بين أشخاص من جنس واحد ولن أُبدي أيضاً إلا بعض الملاحظات العامة ، بالنظر إلى أن هذا الموضوع الواسع ، موضوع الصداقة ، لا يكوّن سوى جزء من موضوعي .

ولنضرب مثال صداقة بين امرأتين ليست الواحدة منهما ترتبط بالأخرى ارتباطاً شديداً . وبوسع الواحدة منهما ، وفق الأحداث ، أن تكون بحاجة إلى حماية الأخرى وعونها . وهذه القدرة الوجدانية على العطاء والتلقّي أساسية في صداقة حقيقية . وثمة عناصر من الأوضاع القديمة تتجلّى هنا على نحو راشد ؛ فالحماية والعون والنصائح منحتناها أمنا أول الأمر . فإذا نمونا من الناحية الوجدانية ، وإذا أصبحنا قادرين أن نكفي أنفسنا بأنفسنا ، فإننا لن نكون تابعين تبعية كبيرة لدعم الأم وتشجيعها ، ولكننا عندما يكون علينا أن نواجه أوضاعاً مؤلمة وشاقّة ، فإن الرغبة في أن نستنجد بها تتجلّى دائماً ، وذلك أمر يستمرّ حتى الموت . وبوسعنا ، في علاقتنا بصديقة ، أن نتلقّى عناية أم وحبها ونمنحهما من وقت إلى آخر . ويبدو أن شرطاً من الشروط الضرورية لتكوّن شخصية غنيّة من الناحية الوجدانية ولتشييد استعداد لإقامة الصداقات يكمن في تركيبة موفّقة من اتجاهات الأمومة والبنوّة . (والشخصية الأنثوية التي تنمو نمواً تاماً ، تفترض القدرة على إقامة علاقات جيّدة مع الرجال فيما يخصّ الوجدانية والجنسية معاً ، ولكنني عندما أتكلم على صداقات بين النساء فإنني أقصد أن أتكلم على ميول وعواطف جنسية مثلية مصعّدة). وفي علاقاتنا بأخواتنا ، من الممكن أن تكون

= الزمن أكثر مما هو جاهز لديّ لأعالجه على نحو مناسب . وسأقتصر إذن على أن أذكر أن كثيراً من الحب يمكنه أن يدخل في هذه العلاقات .

الفرصة قد سنحت لنا لنستشعر ونعبّر في وقت واحد عن عطف أم وعن اتجاه حب لدى بنت . وبوسعنا عندئذ أن ننقل هذه العواطف بسهولة إلى صداقات راشدة . ولكن من الممكن أيضاً أن لا يكون لنا أخت وأن لا نكون قد استطعنا أن نستشعر هذه العواطف مع أي منهن . وإذا انتهينا ، في هذه الحالة ، إلى أن نرتبط بصداقة مع امرأة ، فإن ذلك سيكون تحقيق رغبة كبيرة من رغبات طفولتنا ، رغبة عدّلتها الرغبات الراشدة .

ونحن ، مع صديقة ، نتشارك في الاهتمامات واللذائذ ، مع أننا قادرات أيضاً على أن نستمتع بسعادتها ونجاحها ، حتى عندما لا تشجّعنا سعادتها ونجاحاتها . وإذا كانت قدرتنا على التوحّد بها ، والمشاركة في سعادتها على هذا النحو ، قوية جداً ، فإن الحسد والغيرة يمكنهما عندئذ أن ينتقلا إلى المستوى الخلفي .

وعامل الإثمية والتعويض غير غائب أبداً في مثل هذا التوحّد . إننا إذا نجحنا في أن نتجاوز الكره والغيرة ، وخيبات الأمل وضروب اللوم الموجّهة إلى أمهاتنا ، وإذا أفلحنا في أن نكون سعيدات ونحن نراها سعيدة ، وأن نفهم أننا لم نوقع بهن الأذى في استيهامنا أو أن نعوّض الأذى الذي أوقعناه بهن في استيهامنا ، فإننا عندئذ فقط قادرات على أن نتوحّد حقاً بامرأة أخرى . والرغبة في التملّك والضغينة ، اللتان تقودان إلى مقتضيات قوية جداً ، عاملان من عوامل الاضطراب في الصداقة . والواقع أن العواطف التي تكابدها امرأة من النساء بصورة عنيفة جداً في الصداقة مع امرأة أخرى يمكنها أن تقوّض هذه الصداقة . وعندما يحدث ذلك ، فإننا نجد في البحث التحليلي أن ثمة حالات قديمة من الرغبات غير المشبعة ، والضغينة ، والحسد أو الغيرة ، تنبعث من الأعماق . والواقع أن نزاعاً لم يكن محلولاً خلال الطفولة هو الذي يؤدي الدور الهام في تحطيم الصداقة ، على الرغم من أن ثمة أسباباً مبتذلة يمكنها أن تولّد بعض الصعوبات . وثمة ، في الصداقة ، جو وجداني متوازن يُعتبر عاملاً من عوامل النجاح ، وذلك

أمر لا يستبعد لهذا السبب قوة العواطف . وإذا كنا نتوقّع كثيراً ، وإذا كنا على سبيل المثال ننتظر من صديقتنا أن تعوّض ضروب قصورنا البدئي ، فإن حظوظ صداقة في النجاح ستكون ضعيفة على وجه الاحتمال . ومثل هذه المقتضيات المتعسّفة لاشعورية في الجزء الأكبر منها وهذا هو السبب في أنه يتعذّر علينا أن نتخلّص منها بالعقل . ولا يمكنها إلا أن تعرّضنا إلى خيبة الأمل والألم واستشعار الغمّ . والسبب الذي من أجله تقودنا مثل هذه المقتضيات اللاشعورية والمغالية إلى صعوبات في صداقاتنا يكمن في تدخّل تكرارات دقيقة (مختلفة بمقدار ما تكون الأوضاع الخارجية مختلفة) لأوضاع قديمة نشأت حين أثارت الاضطراب للمرة الاولى في الحب الذي كنا نكنّه لآبائنا شدّةُ شراهتنا وكرهنا ، إذ تركتنا فريسة الغيظ والوحدة . وعندما لا يضغط الماضي على الحاضر ضغطاً قوياً جداً ، فإن بوسعنا على نحو أفضل أن نختار أصدقاءنا ، اختياراً مناسباً ونكون مسرورين مما يؤمّنونه لنا .

وثمة جزء كبير من ما قلته عن موضوع الصداقة بين النساء (على الرغم أيضاً من وجود فوارق ذات أهمية بسبب الفارق بين سيكولوجيا الرجل وسيكولوجيا المرأة) ينطبق على إقامة الصداقات بين الرجال . وانفصال عواطف المحبة عن الجنسية ، وتصعيد الميول الجنسية المثلية ، والتوحّد ، تكوّن أيضاً أساس الصداقات بين الرجال . وعلى الرغم من أن في الصداقة بين الرجال تندمج عناصر وإشباعات جديدة ذات علاقة بالشخصية الراشدة ، فإن الرجل يبحث أيضاً ، بصورة جزئية ، عن تكرار علاقته بأبيه أو بأخيه . ومن الممكن أيضاً أن يحاول إما أن يجد ودّاً جديداً يشبع رغباته الماضية ، وإما أن يحسّن علاقات لم تكن مرْضية بأولئك الذين كانوا في الزمن الماضي هم الأقرب إليه .

سادس عشر ـــ بعض الجوانب الأوسع من الحب

السيرورة التي ننقل بها الحب من الأشخاص الأوائل الذين كنا نعزّهم إلى أشخاص آخرين تنطبق على الأشياء أيضاً ، انطلاقاً من أولى الطفولة الأولى . ونحن نكوّن على هذا النحو اهتمامات ونشاطات يندمج فيها جزء من الحب الذي كان ، في الأصل ، يخصّ أشخاصاً . إن جزءاً من جسم الرضيع يمكنه أن يمثّل ، في ذهنه ، أجزاء أخرى من جسمه أو يمثّل أشخاصاً . فأي شيء مدوّر يمكنه ، على هذا النحو الرمزي ، أن يمثّل في لاشعور الطفل ثدي الأم . إن شيئاً يجده جيّداً وجميلاً ، شيئاً يمنح اللذة والإشباع بمعنى مادي أو بمعنى أوسع ، يمكنه ، بهذه السيرورة ، أن يتّخذ تدريجياً ، في لاشعور الطفل ، مكان هذا الثدي الخيّر دائماً ومكان الأم برمتها . وعلى هذا النحو نتكلم على بلادنا بوصفها الوطن الأم لأن بلادنا يمكنها أن تمثّل أمنا على نحو لاشعوري ويمكنها أن تكون عندئذ محبوبة حباً ترافقه عواطف طبيعتها ناجمة عن علاقتنا بالأم .

ولبيان الطريقة التي تندمج بها هذه العلاقة الأولى في اهتمامات كانت تبدو بعيدة جداً ، نضرب مثالاً على ذلك حالة المكتشفين الذين ينطلقون صوب مكتشفات جديدة ، ويعانون أكبر الضروب من الحرمان ، ويلاقون في هذه المحاولة مخاطر جسيمة ، وربما الموت . وتتدخّل ، إلى جانب الظروف الخارجية التي تدفعهم ، عوامل سيكولوجية عديدة قائمة في أساس اهتمامهم بالاكتشاف وبحثهم عن بلدان جديدة . ولن أذكر هنا سوى عامل أو عاملين نوعيين لاشعوريين . فالصبي الصغير يرغب ، بشراهته ، في أن يهاجم جسم الأم الذي يتصف ، بالنسبة له ، أنه امتداد الثدي الجيّد . يضاف إلى ذلك أنه يريد ، في استيهامه ، أن يسرق منها محتويات جسمها ـــ والأطفال على وجه أخص ، الذين يعتبرهم ملكيات ثمينة ، وتحمله غيرته أيضاً على أن يشرع في مهاجمة هؤلاء

الأطفال . وهذه الاستيهامات العدوانية ، استيهامات النفوذ إلى جسمها ، سرعان ما ترتبط برغبات تناسلية في أن يكون على صلات بها .

وأتاح البحث في التحليل النفسي اكتشافاً مفاده أن الاستيهامات الخاصة باكتشاف جسم الأم ، الناجمة عن رغبات الطفل الجنسية العدوانية ، وعن شراهته ، وفضوله ، وحبه ، هي عناصر تساهم في هذا الاهتمام باكتشاف بلدان جديدة . والواقع أن دوافع الطفل العدوانية تولّد ، كما بيّنت في دراسة نموه الوجداني ، إثمية كبيرة وخوفاً من أن يموت الشخص المحبوب ، وهما عاطفتان تشكّلان عنصرين من عناصر الحب وتعزّزانه وتنمّيانه . وتمثّل أرض جديدة ، في لاشعور المكتشف ، أماً جديدة ، أماً تعوّض خسارة الأم الحقيقية . فالمكتشف يبحث عن « الأرض الموعودة » ، « الأرض التي يسيل فيها الحليب والعسل ». والحال أننا رأينا سابقاً أن الخوف من رؤية الشخص المحبوب يموت يقود الطفل إلى الانفصال عنه إلى حدّ معيّن ، ويدفعه في الوقت ذاته أيضاً إلى تجديده وإيجاده في كل ما يشرع به . ويتجلّى هنا تجلياً كاملاً في وقت واحد هروبه بعيداً عنه وتعلّقه الأول به . وعدوانية الطفل البدئية شجّعت الرغبة في التعويض والفعل الجيد ، وفي أن يعيد إلى أمه الأشياء الجيدة التي أخذها منها في استيهامه ، وهذه الرغبات في الأفعال الجيدة تنصهر في الرغبة اللاحقة في الاكتشاف ، ذلك أن الاكتشاف يمنح الناس على وجه العموم وبعض الأشخاص على وجه الخصوص شيئاً جديداً عندما يجد بلداً جديداً . والواقع أن المكتشف يعبّر ، في بحثه ، عن العدوانية والحاجة إلى التعويض في وقت واحد .

ونحن نعلم أن في اكتشاف بلد جديد تُستخدم العدوانية في مصارعة قوى الطبيعة وفي التغلّب على الصعوبات من كل لون . وتتجلّى العدوانية في بعض الأحيان تجلياً أكثر صراحة مع ذلك ، وكان الأمر على وجه الخصوص يحدث على

هذا النحو في الزمن الغابر عندما كان ضرب من القسوة دون رحمة يتجلّى إزاء سكان البلاد الأصليين ، قسوة صادرة عن الأشخاص الذين لم يكونوا يكتشفون فحسب ، بل كانوا يفتحون البلاد ويستعمرونها . وبعض الهجمات الاستيهامية على الأطفال المتخيّلين في جسم الأم ، كما الكره الواقعي للإخوة والأخوات الذين يولدون حديثاً ، كانا ، في الواقع ، يتجلّيان في هذا الاتجاه إزاء سكان البلاد الأصليين . وتجلّت الرغبة في التعويض تجلياً كاملاً مع ذلك بتعمير البلاد مجدّداً بأشخاص من جنسيتهم الخاصة . وهذا الاهتمام بالاكتشاف (الذي تبرز فيه العدوانية صراحة أم لا) يتيح لنا أن نلاحظ أن الميول والعواطف المتنوّعة ـــ عدوانية ، وإثمية ، وحب ، وحاجة إلى التعويض ـــ يمكنها أن تُنقل إلى مجال آخر ، بعيداً عن الشخص الأصلي .

والحاجة إلى الاكتشاف يمكنها أيضاً أن لا تتجلّى في اكتشاف مادي للعالم بالفعل ، بل يمكنها أن تمتدّ إلى مجالات أخرى ، كالبحث العلمي على سبيل المثال . فثمة استيهامات ورغبات بدئية في اكتشاف جسم الأم تندمج في الإشباع الذي يستمدّه الفلكي من عمله . والرغبة في اكتشاف أم الأيام القديمة مجدّداً ، الأم التي كانت قد فُقدت في الواقع أو في العواطف ، ذات أهمية كبرى أيضاً في الفن وفي اللذائذ التي يستمدّها منه الناس الذين يقدّرون قيمته .

ولأبيّن بالمثال بعضاً من هذه السيرورات التي أتيت على وصفها ، سأضرب مثال السونتّو* الشهيرة جداً ، سونتو كيتز « من النظرة الاولى لهومير ترجمة شابمان »[1] .

(*) ـــ قصيدة تشتمل على أربعة عشر بيتاً ، اخترعها شعراء بروفنسا أو إيطاليا في القرن الثالث عشر . وثمة شبه اتفاق على أن أول من أجاد نظم « السونتو » هو الشاعر الإيطالي لنتينو ، ثم انتقل إلى فرنسا وبريطانيا في القرن السادس عشر (معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبه ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٤) « م ».

(١) ـــ للفائدة ، سأذكر القصيدة كلها على الرغم من أنها معروفة : =

ويتكلم كيتز هنا من وجهة نظر من يستمتع بعمل من الأعمال الفنية . فهو يقارن الشعر بـ « دول وامبراطوريات مزدهرة » وبـ « مناطق مذهّبة ». إنه ، حين يقرأ هومير ترجمة شابمان ، هو نفسه أول الأمر ذلك الفلكي الذي يسبر السماوات « عندما ينبعث أمام ناظريه كوكب جديد ». ثم يصبح كيتز عندئذ المكتشف

= **عندما فتحت كتاب هومير**
(ترجمة شابمان)

جبت المناطق المذهّبة زمناً طويلاً ،
ورأيت كثيراً من الدول والامبراطوريات المزدهرة ؛
وطفت في جولتي عدداً من الجزر الغربية ،
التي وهب أبولون أقنانها الشعراء .
وتكلم بعضهم إليّ على امبراطورية واسعة
يحكمها هومير ذو الجبهة القوية حكماً لا يشاركه فيه أحد ،
ولكنني لم أستنشق قط صفاء أثيرها
قبل أن أسمع الصوت الجريء لشابمان يدوي .
وشعرت عندئذ أنني شبيه بمن يسبر قبة السماء ،
عندما ينبعث أمام ناظريه كوكب جديد ؛
أو شبيه بكورتز* المقدام عندما كانت عيناه الثاقبتان ، عينا النسر ،
تحدّقان في المحيط الهادي ، محاطاً برجاله
الذين ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أذهلتهم المفاجأة ،
صامتين ، على شعفة جبل تطلّ على خليج داريان* .
(ترجمة كليرمان ــ تونير ، **شعر جون كيتز** ، نشر دار إميل بول وإخوانه ، ١٩٢٣) .

(*) ــ كورتز ، فيرناند ، فاتح إسباني (١٤٨٥ ــ ١٥٤٧). انطلق عام ١٥١٨ لغزو المكسيك ، ودمّر امبراطورية الأزتيك (١٥٢١). وعندما عاد إلى اسبانيا ، زالت حظوته « م ».

(*) ــ داريان : خليج في جزر الأنتيل (بناما وكولومبيا) « م ».

الذي يكتشف ، « وقد أذهلته المفاجأة »، أرضاً وبحراً جديدين . والعالم يمثّل الفن في قصيدة كيتز الرائعة . ومن الواضح أن اللذة الفنية والاكتشاف العلمي ناجمان عن المصدر نفسه بالنسبة له : حب المقاطعات الجميلة و « المناطق المذهّبة ». ويبيّن اكتشاف اللاشعور (قارة مجهولة اكتشفها فرويد)، كما أشرت سابقاً ، أن المناطق الجميلة تمثّل الأم المحبوبة وأن الرغبة في بلوغ هذه الأراضي ناشئة من رغبتنا في هذه الأم . وبوسعنا الافتراض ، لكي نعود إلى سونتّو كيتز دون أن نحلّلها لهذا السبب تحليلاً بالتفصيل ، أن « هومير ذا الجبهة القوية » الذي يحكم أرض الشعر يمثّل الأب موضع الإعجاب الذي يقتدي به ابنه (كيتز) عندما يلج ، هو أيضاً ، بلاد رغبته (الفن ، والجمال ، وأمه في نهاية المطاف).

وعلى النحو نفسه ، فإن النحّات ، الذي يمنح الحياة موضوعاته الفنية ، سواء أكانت هذه الموضوعات تمثّل شخصاً أم لا تمثل ، يجدّد ويبدع الأشخاص الذين كان يحبهم في الزمن الغابر ، والذين دمّرهم في استيهامه ، تجديداً وإبداعاً لاشعوريين .

سابع عشر ـــ الإثمية ، والحب ، وقوة الإبداع

الإثمية التي تتسم بأنها ، كما حاولت أن أبيّن ذلك ، محرّض أساسي من محرضات قوة الإبداع والعمل بوجه عام (حتى بأشكالها الأكثر بساطة)، يمكنها مع ذلك ، إذا كانت قوية جداً ، أن يكون لها نتيجة مفادها كفّ الاهتمامات والفاعليات المنتجة . والتحليل النفسي لأطفال صغار هو الذي كان قد جعلنا ، باديء ذي بدء ، نفهم تعقيد هذه العلاقات . فعندما تضعف باستخدام التحليل النفسي مخاوف من أنواعٍ شتى لدى الأطفال ، يرى المرء تستيقظ ميول مبدعة كانت لا تزال راقدة حتى ذلك الحين . وتتجلّى هذه الميول في الفاعليات ، كالرسم ، وصنع النماذج ، والبناء ، والكلام . وكانت مخاوف الطفولة قد أثارت

تنامياً في دوافع التدمير ، وهذا هو السبب في أن ضعفها يقود إلى ضعف دوافع التدمير .¹ والإثمية والحصر الخاصان بموت الشخص المحبوب ، اللذان لم يستطع ذهن الطفل أن يتحمّلهما لأنهما كانا مرهقين ، يضعفان بصورة موازية تدريجياً ، ويفقدان بعضاً من قوتهما ، وتصبح السيطرة عليهما ممكنة . وينجم عن ذلك اهتمام متعاظم بالأشخاص الآخرين في حين أن حساسيته تجاههم وقدرته على التوحّد تنشطان . ويصبح الحب على هذا النحو أقوى . والرغبة في التعويض ، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاهتمام الذي يستشعره الطفل إزاء الشخص المحبوب وبالحصر الخاص بموته ، يمكنها الآن أن تتجلّى في دروب مبدعة وبنّاءة . وهذه السيرورات وهذه التغييرات يمكنها أيضاً أن تلاحظ في التحليل النفسي للراشدين .

وقد عبّرتُ عن الفكرة التي مفادها أن كل مصدر من مصادر السرور ، والجمال ، والاغتناء (سواء أكان داخلياً أم خارجياً) يشبّهه الطفل لاشعورياً بثدي الأم المحب والكريم وبعضو الذكر الأبوي الخلاّق الذي يتصف في الاستيهام بخصائص الثدي نفسها . فهذه المصادر يشبّهها المرء ، في نهاية المطاف ، بالأبوين الطيّبين والكريمين . وللعلاقة بالطبيعة التي توقظ عواطف قوية جداً من الحب ، وتقدير القيمة ، والإعجاب ، والإخلاص ، كثير من النقاط المشتركة مع العلاقة بالأم ، والشعراء عرفوا ذلك منذ زمن طويل . فهبات الطبيعة ، هباتها العديدة ، يشبهونها بكل ما تلقّينا عن أمنا في الزمن الغابر . ولكن هذه الأم لم تمنحنا الإشباع دائماً ، وقد كابدنا على الغالب عاطفة مفادها أنها لم تكن كريمة وكانت تحبطنا . وهذا الجانب من عواطفنا تجاهها نعيشها عيشة جديدة أيضاً مع الطبيعة التي لا تمنح غالباً إلا على مضض .

وإشباع حاجاتنا الناجمة عن غريزة المحافظة على البقاء ، وإشباع رغبتنا في أن نكون محبوبين ، يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً مستمراً . وهذان الإشباعان كانا ، في الأصل ، ناجمين عن مصدر واحد ووحيد . فالأمن كانت أمنا أول الأمر

تقدّمه لنا ، تلك الأم التي كانت لا تسكّن تشنّجات الجوع فحسب ، ولكنها كانت تمنح الإشباع رغباتنا الوجدانية وتخفّف من حصرنا . وهذا هو السبب في أن الأمن الذي نحصل عليه بإشباع حاجاتنا الأساسية يجد نفسه مرتبطاً بالأمن الوجداني ، والأمنان ضروريان بمقدار ما يعوّضان عن مخاوفنا البدئية من فقدان الأم المحبوبة . وينطوي الأمن الخاص بوسائل وجودنا أيضاً ، في الاستيهام اللاشعوري ، على واقع مفاده أن لا يعوزنا الحب وأن لا نفقد أمنا فقداناً تاماً . ومن المؤكد أن الرغبات المادية الأساسية ماثلة أول الأمر في ذهن من لا عمل له ويناضل ليجد عملاً ، وأنا لا أقلّل من أهمية الضيق النفسي والآلام الواقعية المباشرة وغير المباشرة التي تتّصف بأنها نتيجة الفقر . ولكن الوضع العسير الذي يعانيه الإنسان في الواقع يصبح أكثر إثارة للحصر من جرّاء أسى ويأس مصادراهما أوضاع وجدانية قديمة جداً ، في حين أن هذا الإنسان لم يكن يشعر فحسب أنه محروم من الغذاء لأن أمه لم تكن تشبع حاجاته ، ولكنه كان لديه الانطباع أيضاً بأنه يفقدها ويفقد في الوقت نفسه حبها وحمايتها[1] . والبطالة تحرم هذا الإنسان من إمكان التعبير عن ميوله البنّاءة ، وتلك وسيلة من الوسائل الأكثر أهمية ليزيل مخاوفه اللاشعورية ــ وهو يعوّض ــ ويزيل إثميته . وثمة شيء مشترك بين الظروف

---

(١) ــ في التحليل النفسي للأطفال ، اكتشفت على الغالب ــ بدرجات مختلفة بالطبع ــ مخاوف من الطرد من البيت عقوبة على عدوانية لاشعورية (رغبة في طرد الآخرين) وعلى ضرر واقعي كان الطفل قد سبّبه . وهذا الحصر يستقرّ في زمن مبكّر جداً ويمكنه أن يمارس إرهاقاً قوياً جداً على ذهن الطفل . وثمة حالة خاصة ناجمة عن ذلك هي الخوف من أن يكون إما يتيماً مسكيناً وإما متسوّلاً ، أو أن يكون محروماً من مأوى ومن غذاء . وهذا المخاوف من الحرمان كانت ، لدى الأطفال الذين لاحظتهم ، مستقلّة كل الاستقلال عن وضع الآباء المالي . ولهذه المخاوف فيما بعد نتيجة مفادها تفاقم الصعوبات الناجمة عن ظروف مختلفة ، كفقدان المال ، ووجوب مغادرة المنزل أو فقدان العمل . إنها ظروف تضيف عنصراً من الحصر واليأس العميق .

القاسية (على الرغم من أن هذه الظروف يمكنها أن تكون ناجمة جزئياً عن نظام اجتماعي غير مرْض ، وأن توفّر على هذا النحو للشخص الذي يعيش في التعاسة أسباباً واقعية ليوجّه اللوم على ذلك إلى أشخاص آخرين) وصلابة الآباء المرهوبين التي يعتقد الأطفال بوجودها اعتقاداً جازماً عندما يكونون تحت تأثير التوتّر في الحصر . وعلى العكس ، إن عوناً مادياً أو معنوياً نقدّمه للأشخاص الفقراء أو العاطلين عن العمل هو عون يحس به هؤلاء الأشخاص بصورة لاشعورية ، إضافة إلى قيمته الواقعية ، أنه البرهان على وجود الآباء المحبين .

ولنعدْ إلى العلاقة بالطبيعة : والطبيعة قاسية ومدمّرة في بعض الأجزاء من العالم ، ولكن السكان يتحدّون عناصر الطبيعة ، بدلاً من أن يتركوا بلادهم ، سواء كانت الجفاف ، أو الفيضانات ، أو البرد ، أو الحر ، أو الهزّات الأرضية ، أو الطاعون . والحقيقة أن الظروف الخارجية تؤدّي دوراً ذا أهمية ، ذلك أن هؤلاء الناس العنيدين قد لا يكون لديهم التسهيلات لترك المكان الذي عاشوا فيه . ولا يبدو لي مع ذلك أن هذا الأمر يشرح الظاهرة التي مفادها أن كثيراً من المحن يمكنهم احتمالها في بعض الأحيان بغية البقاء في بلد المنشأ ، شرحاً كافياً . والمعركة في سبيل وسائل العيش ، لدى أناس يعيشون في شروط طبيعية صعبة جداً ، تخدم أهدافاً أخرى (لاشعورية) في الوقت نفسه . فالطبيعة تمثّل ، بالنسبة لهم ، أماً بخيلة متشدّدة ينبغي لهم أن ينتزعوا منها الهدايا بالقوة . ويتيح ذلك لهم أن يكرّروا ويشغّلوا استيهامات العنف القديمة (على صورة مصعّدة ومتكيّفة من الناحية الاجتماعية). وإذ يحسّون بصورة لاشعورية أنهم آثمون بسبب دوافعهم العدوانية إزاء أمهم ، فإنهم كانوا ينتظرون منها (وهم الآن ، في علاقتهم مع الطبيعة ، ينتظرون أيضاً بصورة لاشعورية) أن تكون قاسية معهم . وهذه الإثمية تحرّض الحاجة إلى التعويض . وهذا هو السبب في أن المعركة مع الطبيعة

يستشعرونها بصورة جزئية على أنها معركة لـ **المحافظة** عليها لأنها تعبّر أيضاً عن الحاجة إلى التعويض (تعويض الأم). وعلى هذا النحو فإن الناس الذين يصارعون طبيعة قاسية لا يُعنون بأنفسهم فحسب ، ولكنهم يخدمون الطبيعة أيضاً . وهم ، إذ لا يقطعون صلاتهم بها ، يحافظون على صورة أم الأيام القديمة حيّةً . وهم ، إذ يظلّون قريبين منها لمجرّد أنهم لم يهجروا بلادهم ، يحمون أنفسهم في الاستيهام ويحمونها . ويبحث المكتشف في الاستيهام ، على العكس ، عن أم جديدة حتى تحلّ محل الأم الفعلية التي انفصل عنها أو التي يخشى لاشعورياً أن يفقدها .

ثامن عشر ــ علاقتنا بأنفسنا وبالآخرين

درست في هذا البحث بعض جوانب القدرة على الحب لدى الفرد وعلاقاته بالآخرين . وليس بمقدوري مع ذلك أن أخلص إلى نتيجة دون أن أحاول إلقاء ضوء على أكثر علاقاتنا تعقيداً ، وهي العلاقة التي نقيمها مع أنفسنا . ولكن ما الذات ؟ إنها مجموع الأشياء الجيدة والسيئة التي عرفناها منذ أيامنا الأولى : كل ما تلقّيناه من العالم الخارجي ، وكل ما استشعرناه في عالمنا الداخلي ، تجارب سعيدة ومؤلمة ، وعلاقات بالآخرين ، واهتمامات وأفكار من كل نوع ، أي كل ما عشناه . وكل ذلك يشكّل جزءاً من ذاتنا ويساهم في تكوين شخصيتنا . فكم سنشعر بالافتقار والفراغ لو أنه كان قد حدث أن امّحت من حياتنا بعض علاقاتنا الماضية والذكريات المقترنة بها ! فالحب ، والثقة ، والإشباعات ، والدعم ، والعرفان بالجميل ، عواطف كابدناها أو منحناها ، ستكون في الجزء الأعظم منها مفقودة ! فالكثير منا لا يتمنّون حتى أن يكونوا قد حُرموا من معاناة بعض التجارب المؤلمة ، ذلك أنها ساهمت أيضاً في إغناء شخصيتنا . وفي هذا المقال ، ذكرت على الغالب ذلك المفعول الكبير لعلاقاتنا الأولى على علاقاتنا اللاحقة . وأريد الآن أن أبيّن أن لهذه الأوضاع الوجدانية الأكثر بدئية تأثيراً

أساسياً على العلاقة **بأنفسنا** . ونحن نحتفظ في ذهننا ، الذي يشبه شاشة ، بالأشخاص الذين نحبهم . ومن الممكن ، في بعض الأوضاع ، أن يكون لدينا الانطباع بأنهم يقودوننا ، وأن نتساءل كيف سيسلكون وإن كانوا يوافقون أو لا يوافقون على طريقتنا في التصرّف . ومما قلته سابقاً ، بوسعنا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أن الأشخاص الذين نستنجد بهم على هذا النحو يمثّلون الآباء المحبوبين وموضع الإعجاب في نهاية المطاف . وقد رأينا مع ذلك أنه ليس سهلاً بالنسبة للطفل على الإطلاق أن يقيم علاقات متناغمة مع الأبوين وأن دوافع الكره ، والإثمية اللاشعورية التي تولّدها هذه الدوافع ، يكفّان عواطف الحب الأولى ويثيران الاضطراب فيها . والحقيقة أن من الممكن أن يكون الأبوان قد قصّرا في حب الطفل وفهمه ، وأن ذلك ينزع إلى أن يفاقم الصعوبات المحيطة . فالدوافع واستيهامات التدمير ، والخوف والحذر ، الماثلة بنشاط لدى الطفل الصغير دائماً إلى حد معيّن ، حتى في الظروف الأكثر ملاءمة ، تتفاقم جداً على نحو ضروري بفعل شروط غير ملائمة وتجارب مؤلمة . يضاف إلى ذلك أن قدرة الطفل ــ وهذا أمر ذو أهمية كبيرة أيضاً ــ على الأمل ، والحب ، وإيلاء الثقة ، ستكون مصابة بالاضطراب إذا لم يكن سعيداً في بداية حياته سعادة كافية . ولكن لا ينجم عن ذلك أن القدرة على الحب وعلى أن يكون سعيداً ، قدرة تنمو لدى الطفل ، تتناسب تناسباً مباشراً مع الحب الذي كان قد مُنحه . والواقع أن ثمة أطفالاً يكوّنون في لاشعورهم صوراً أبوية صلبة جداً وقاسية جداً ، وذلك أمر يثير الاضطراب في العلاقة بالآباء الواقعيين وبالآخرين على وجه العموم ، حتى لو كان الآباء طيبين تجاههم ومحبين . وقد يحدث على الغالب ، من جهة أخرى ، أن لا تكون الصعوبات النفسية لدى طفل من الأطفال متناسبة بصورة مباشرة مع المعاملات السيئة التي تلقّاها .

وإذا كان الطفل ، لأسباب داخلية تتنوّع منذ البدء بتنوع الأفراد ، ضعيف

القدرة على تحمّـل الإحباط ، وإذا كانت العدوانية ، والمخاوف ، والإثمية ، قوية جداً ، فإن عيوب الآباء الواقعية ، وعلى وجه الخصوص تلك الأسباب التي من أجلهـا استطاعوا أن يرتكبوا الأخطاء ، يمكنها أن تكون موضع المبالغة والتشويه الكبيرين في ذهن الطفـل . ومن الممكن عندئذ أن يكون الأبوان والأشخاص الآخرين الذين يحيطون بالطفل محسوسين على وجه الخصوص بأنهم وجوه صلبة وقاسية . فكرهنا ، ومخاوفنا ، وريبتنا ، تنزع إلى أن تخلق في اللاشعور صوراً أبوية مرعبة ومتشدّدة . وتعمل هذه السيرورات عملاً نشيطاً بدرجات مختلفة لدى كل منـا ، بالنظر إلى أن علينـا جميعنا على وجه التقريب ، بطريقة أو بأخرى ، أن نكافح الكره والخوف . ويبين لنا بالتالي أن للدوافع العدوانية ، والمخاوف ، والإثمية (التي تولّدت بصورة جزئية لأسباب داخلية)، **من الناحية الكمية** ، نتائج خطيرة فيما يخص الاتجاه النفسي السائد الذي سينشأ فينا .

وعلى العكس من هؤلاء الأطفال الذين يبتكرون لأنفسهم في لاشـعورهم ، استجابة لمعاملة سيئة ، صوراً أبوية هي على هذا القدر من الصلابة والقسوة ، صـوراً أبوية ستؤثّر على نحو كارثي في كل اتجاههـم النفسـي ، ثمة العديد من الأطفـال الذين سيكون لأخطـاء الآباء أو لنقص الفهـم لديهم نتـائج ضعيفـة عليهـم . وهؤلاء الأطفـال قادرون منذ البداية ، لأسباب داخلية ، أن يتحمّلوا الإحبـاطات (سـواء أكان تجنّبهـا ممكنـاً أم غير ممكن). وأعني أنه يمكنهـم أن يتحملوها دون أن تسيطر عليهم سيطرة كبيرة دوافعهم الخاصـة ، دوافع الكره والريبـة . ومثـل هؤلاء الأطفال سيتقبّلون على نحو أفضـل أخطاء آبائهم الذين ارتكبوها بحقهم . وعطفهم يدعمهم دعماً أفضل . ولهذا السبب كانوا أقل إصابة بالحصر وأكثر صعوبة أن يصيبهـم بالاضطراب ما يأتيهـم من العالم الخارجي . وليس ثمة طفل لا يعرف ذهنه الخوف والريبة ، ولكن بوسعنا ، إذا كانت علاقتنا بآبائنا مبنيّة على الحب والثقة بصورة خاصة ، أن ننشيء إنشاء متيناً صوراً أبوية

تقودنا وتغيثنا ، صوراً أبوية هي مصدر التشجيع والانسجام وهي النموذج الأصلي لكل علاقات الصداقة اللاحقة .

وحاولت أن أوضّح بعضاً من علاقاتنا الراشدة قائلة إننا نسلك مع بعض الأشخاص كما كان يسلك معنا آباؤنا عندما كانوا يبدون محبّين ، أو كما كنا نرغب في أن يسلكوا ، إذ نعكس على هذا النحو أوضاعاً بدئية . ونحن نتبنّى ، مع بعض الأشخاص الآخرين ، اتجاه الطفل الذي يحب أبويه . وهذه العلاقة التي يستطيع الأطفال والآباء أن يتبادلوها ، والتي نعبّر عنها في اتجاهنا إزاء الناس ، هي العلاقة **التي نستشعرها أيضاً في أنفسنا إزاء هذه الصور الأبوية التي تنجدنا وتهدينا ونحتفظ بها في أذهاننا** . ونحس إحساساً لاشعورياً بانطباع مفاده أن هؤلاء الأشخاص الذين يشكّلون جزءاً من عالمنا الداخلي هم بالنسبة لنا آباء محبون وحماة . ونحن نعيد إليهم هذا الحب ونشعر أننا آباء تجاههم . وهذه العلاقات الاستيهامية المبنيّة على تجارب وذكريات واقعية تشكّل باستمرار ونشاط جزءاً من حياتنا الوجدانية وخيالنا ، وتساهم في سعادتنا وقوتنا المعنوية . وإذا كانت مع ذلك هذه الوجوه الأبوية التي نحتفظ بها في عواطفنا ولاشعورنا صلبة على وجه الخصوص ، فإنه لن يكون ممكناً لنا عندئذ أن نكون في سلام مع أنفسنا . ومن المعروف جيداً أن وجداناً أخلاقياً شديد القسوة يولّد الأسى والاستياء . ومن غير المعروف جيداً ، ولكنه أمر برهن عليه البحث في التحليل النفسي ، أن ضغط هذه الاستيهامات ، استيهامات الحرب الداخلية ، والمخاوف المرتبطة بها ، تكمنان في قلب ما نسميه وجداناً حاقداً . ونقول بين معترضتين إن هذه الضغوط وهذه المخاوف يمكنها أن تتجلّى في اضطرابات ذهنية خطيرة وتقود إلى الانتحار .

لقد استخدمت المصطلح الغريب بالحري ، مصطلح « لاقتنا بأنفسنا ». وأودّ أن أضيف أن المقصود علاقة عزيزة على أنفسنا ونحبها ، من جهة ، ومن جهة ثانية نكرهها . وحاولت أن أشرح أن الجزء العزيز على أنفسنا هو هذا الغنى الذي

راكمناه بحكم علاقتنا مع الأشخاص الآخرين ، ذلك أن هذه العلاقات والعواطف المرتبطة بها أصبحت ثروة داخلية . وما نكرهه في أنفسنا هو الصور الصلبة والقاسية التي تشكّل جزءاً من عالمنا الداخلي ، وهي نتيجة عدوانيتنا الخاصة تجاه آبائنا إلى حد كبير . ولكن الكره الأعنف يتوجّه في الحقيقة ضد الكره داخلنا . وهذا الكره في أنفسنا نخشاه كثيراً بحيث نكون مدفوعين إلى أن نستخدم آلية من آليات الدفاع الأشد عنفاً لدينا : الإسقاط ، إذ ننقل الكره إلى أشخاص آخرين . وبوسعنا أيضاً أن ننقل الحب إلى العالم الخارجي ، ولكن ذلك متعذّر إلا إذا أقمنا علاقات جيدة مع الصور الجيدة في داخل نفسنا . والمسألة هنا مسألة آلية مناسبة ، ذلك أننا نحصل في بداية الأمر على الثقة والحب في علاقتنا بآبائنا ، ثم نستدخل هؤلاء في وقت واحد على وجه التقريب مع الثقة والحب ، وبوسعنا أن ننهل من هذا الغنى في الحب لنوزّعه مجدّداً في العالم الخارجي . أما فيما يخصّ كرهنا ، فثمة آلية مماثلة ، ذلك أن الكره يقودنا ، كما رأينا ، إلى أن ننشىء في أذهاننا صوراً مرعبة . ونكون عندئذ جاهزين لأن نعزو هذه الصفات الكريهة والمهدّدة إلى أشخاص آخرين . ونقول بين معترضتين إن لمثل هذا الاتجاه الذهني نتيجة واقعية مفادها أن تجعل الآخرين كريهين ورييبين إزاءنا ، في حين أن اتجاه ودّ وثقة من جهتنا يمكنه أن يوقظ ثقة الآخرين وودّهم .

ونحن نعلم أن بعض الأشخاص ، وعلى وجه الخصوص حين يشيخون ، يصبحون أكثر لطفاً ، وأشد تفهماً ، وأكثر تسامحاً . ونعلم أيضاً أن هذه الفوارق ناجمة عن فوارق في الاتجاه أو الطبع وليست فقط نتيجة التجارب ، السعيدة وغير السعيدة ، التي مروا بها في الحياة . وبوسعنا أن نخلص ، مما قلته ، إلى نتيجة مفادها أن الضغينة التي تتجلّى إما على الناس وإما على القدر (وتتجلّى غالباً على الاثنين معاً) تستقرّ على نحو أساسي في الطفولة ، وأن الحياة اللاحقة يمكنها أن تعزّزها أو تكثّفها .

وإذا كانت الضغينة والمطاعن والكره لم تخنق الحب ، وإذا استقرّ الحب في النفس استقراراً راسخاً ، فإن الثقة بالآخرين والاعتقاد بأنهم طيّبون يكونان شبيهين بصخرة تقاوم ضربات القدر . وعندما تحدث التعاسة فجأة ، فإن مَنْ تطوره تمّ وفق هذه التخطيطية يمكنه أن يحتفظ في نفسه بهذين الأبوين الطيبين اللذين يتّصف حبهما ، في تعاسته ، بأنه عون لا يكفّ عن التجلّي ، وبوسعه أن يكتشف ، في العالم الخارجي ، أشخاصاً يحلّون محلّهما في ذهنه . وبفضل هذا الاستعداد إلى قلب الأوضاع الاستيهامية وإلى التوحّد بالآخرين ، وهو استعداد خاص جداً بالإنسان ، فإن هذا الإنسان يمكنه أن يوزّع على الآخرين ذلك العون والحب اللذين يحتاج إليهما هو ذاته ويجد على هذا النحو ، بالنسبة له ، دعماً ورضىً .

بدأت مقالي وأنا أصف الوضع الوجداني للرضيع في علاقته بأمه ، علاقة هي المصدر الأول والمطلق للهناء الذي يتلقّاه من العالم الخارجي . وأكملت قائلة إنه لأمر شاقّ إلى الحد الأقصى أن يستغني الرضيع عن الإشباع الأسمى الذي يستمدّه من كون أمه هي التي تغذّيه . وإذا كانت شراهته وضغينته أمام الإحباط ليستا مع ذلك كبيرتين جداً ، فإنه قادر على أن ينفصل عنها بالتدريج ، وأن يجد في الوقت نفسه إشباعات أخرى . وترتبط موضوعات اللذة الجديدة ، في لاشعوره ، بالإشباعات الأولى التي يتلقّاها من أمه ، ويمكنه لهذا السبب أن يقبل إنابة متع أخرى لديه مناب المتع الأصلية . وبوسعنا أن نصف هذه السيرورة بأنها استمرار الهناء البدئي بقدر ما هي الحلول محلّه . ويبقى في ذهن الرضيع محلّ للشراهة والكره يضيق بقدر ما تتمّ هذه السيرورة بنجاح . ومع ذلك ، تؤدي الإثمية اللاشعورية ، التي تنشأ نشوءاً ذا علاقة بالتدمير الاستيهامي لشخص محبوب ، دوراً أساسياً في هذه الآليات ، كما أشرت في عدة مناسبات . ورأينا أن الإثمية اللاشعورية والأسى لدى الرضيع ، الناجمين عن استيهاماته التي تجعله شراهته وكرهه يدمّر فيها أمه ،

يولّدان الرغبة في أن يُعنى بهذه الجروح الخيالية وأن يعوّض عن أخطائه تجاهها . وتبيّن لنا أن لهذه العواطف تأثيراً كبيراً على رغبة الرضيع في قبول بدائل عن الأم وعلى استعداده للتصرّف على هذا النحو . وتولّد الإثمية في الواقع خشية التبعية للشخص المحبوب الذي يخاف الطفل من فقدانه ، ذلك أن هذا الطفل يستشعر ، منذ أن تنبعث عدوانيته ، انطباعاً مفاده أنه يؤذيه . وتحرّض هذه الخشية من التبعية انفصاله عنه ، وتدفعه صوب أشخاص آخرين وأشياء أخرى ، إذ يوسّع على هذا النحو حقل اهتماماته . والحاجة إلى التعويض يمكنها عادةً أن تحبط اليأس الذي تولّده الإثمية ، وينتصر الأمل ، وسيكون الحب والرغبة في التعويض منقولين بصورة لاشعورية إلى موضوعات حب جديدة واهتمامات جديدة . وهذه الموضوعات والاهتمامات ترتبط في لاشعوره، كما نعلم سابقاً ، بالشخص المحبوب الأول . وعلاقته بهؤلاء الأشخاص الجديدين وبهذه الاهتمامات البنّاءة تتيح له أن يكتشف الشخص الأول المحبوب اكتشافاً جديداً ويجدّده . وعلى هذا النحو يتّسع التعويض ــ وهو عنصر أساسي جداً في الاستعداد إلى الحب ــ ويتنامى استعداد الطفل تنامياً كبيراً إلى قبول الحب وإلى أن يتقبّل في نفسه ، بوسائل مختلفة ، تلك الأشياء الجيدة التي تأتيه من العالم الخارجي . وهذا التوازن المرْضي بين « العطاء » و « الأخذ » هو الشرط الأول لسعادة لاحقة .

وإذا كنا ، خلال نمونا الأكثر بدئية ، قادرين على أن ننقل الاهتمام والحب اللذين كنا نحملهما لأمنا إلى أشخاص آخرين ومصادر إشباع أخرى ، فإننا سنكون عندئذ (وعندئذ فقط) قادرين فيما بعد أن نستمدّ لذة من المصادر الأخرى . وذلك سيتيح لنا أن نعوّض عن إخفاق أو عن خيبة أمل ذات علاقة بشخص من الأشخاص إذ نقيم علاقة صداقة بأشخاص آخرين ، وأن نقبل بدائل عن أشياء لم يكن بوسعنا الحصول عليها أو الاحتفاظ بها . وإذا كانت الشراهة المحبطة والضغينة والكره ، الموجودة في أنفسنا ، لا تثير الاضطراب في هذه العلاقة

بالعالم الخارجي ، فإننا سنكتشف طرقاً عديدة لندرك في أنفسنا الجمال والطيبة والحب ، الصادرة عن العالم الخارجي . ونحن ، إذ نفعل ذلك ، لا نكفّ عن أن نضيف ذكريات إلى ذكرياتنا السعيدة ، وسنكوّن لأنفسنا بالتدريج احتياطياً من القيم . وهذه القيم تمنحنا أمناً لا يمكنه أن يتزعزع بسهولة ، وسعادة تمنع المرارة . يضاف إلى ذلك أن لجميع هذه الإشباعات ، فضلاً عن اللذة التي تؤمّنها ، نتيجة مفادها إضعاف الإحباطات الماضية والراهنة (أو عاطفة الإحباط بالحري) ، إذ يصيب مفعولها الإحباطات الأساسية الأكثر قدماً . ونحن نستشعر على نحو أقل ضروب الحرمان التي تغيظنا ، والرغبة في التملك والكره اللذين يسوساننا ، بقدر ما تكون الإشباعات الواقعية التي نستشعرها أكثر عدداً . فنكون عندئذ قادرين حقاً على أن نقبل من الآخرين حبهم وطبيعتهم ، وأن نحبهم ونتلقّى منهم أيضاً حباً أكبر بالمقابل . ونقول بعبارة أخرى إن هذا الاستعداد الأساسي لـ «العطاء والأخذ» نما في أنفسنا على نحو يؤمّن سرورنا الخاص ، مساهماً في الوقت نفسه بلذة الأشخاص الآخرين وهنائهم وسعادتهم .

وخلاصة القول إن علاقة جيدة بأنفسنا شرط من الشروط لنبرهن للآخرين على الحب والتسامح والحكمة . وهذه العلاقة الجيّدة بأنفسنا نمت نمواً جزئياً ، كما حاولت أن أبيّن ، انطلاقاً من اتجاه ودي ، محبّ وفهيم تجاه الآخرين ، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين كان لهم كثير من الأهمية بالنسبة لنا في الماضي ، وعلاقتنا بهم أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من أنفسنا وشخصيتنا . وإذا أصبحنا ، في أعماق شعورنا ، قادرين على أن نمحو إلى حدّ معيّن تلك المطاعن التي نستشعرها إزاء آبائنا ، فإن بوسعنا عندئذ أن نكون في سلام مع أنفسنا وأن نحب الآخرين بالمعنى الحقيقي لكلمة حب .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * * * *

دار الشـــــــام للـطـبــاعـــــة
دمشق طريق السيدة زينب ☎ ٢٢٧٩٩٢



دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد - هاتف ٤٢٧٣٢١ - ص.ب ٤٩٢٦

دار الشـــــام للطبـاعـــة
دمشق طريق السيدة زينب ☎ ٢٢٧٩٩٢

